

بطولات عربية

محمود الشقراوي

١٩٦١

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد زوي
القاهرة



الطبعة الأولى

مقوق الطبع محفوظة للمؤلف

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

أ.د. عبد الحميد بدوي

إلى صاحب المكتبة الأصل الأولى

بطولات عربية

محمود الشراوي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مكتبة جامعة الكويت
١٩٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

عشرات الكتب ، وآلاف الصفحات ، أُلْفَتْ وكتبت في تاريخ وطننا العربي منذ مئات السنين . ولكن السمة الغالبة عليها جميعاً أنها تؤرخ للملوك والحكام والوزراء والعلماء وأصحاب الذكر والوجاهة والتصدر . ولكنها لا تحفل بسواد الناس وعامتهم . تتحدث عن الحروب والغزوات والفتوحات . ولكنها — حتى في حديثها عن الحروب والغزوات — تؤرخ للقواد وأمراء الجند . وتهمل ، في الأكثر الأعم ، من رسوا ، مهما أظهروا من الشجاعة والفداء ، وأبدوا من التضحية والبلاء .

تاريخ يخدم الملوك والسادة والكبراء . ويهمل السواد والأفراد . ولولا ما نجده عند ابن أبياس ، والجبرتي خاصة ، ما استطاع مؤرخ أو كاتب أن يجد سيرة مجاهد أو بطل من أوساط الناس أو أبناء الشعب . وما نجده عند الجاحظ مثلاً من سيرة لصملوك أو مغامر ، كان الغرض

(ب)

منه الإغراب والتظرف^١، والتحدث به إلى الأمراء والملوك، لتسليتهم .
وتقع على كثير منه ظلالُ الشك والوضع.

وقد دعوت^٢، في الجزء الثالث من كتابي : « دراسات في تاريخ
الجبرتي » إلى مقابيس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث^(١)، فقلت إن
دراسة هذا التاريخ، منذ الفتح العثماني، ومنذ استيلاء محمد علي على الحكم
خاصة، « خاضعة لموثرات غير أمينة وغير منصفة، وغير مفيدة . بل هي
ضارة بالغة الضرر على وجه التأكيد .

أما أنها غير أمينة فلأنها كانت منحازة إلى جانب الخصومة مع
شعبنا، وكأنها لا تؤرخ له، بل تجمع المآخذ، والآثام، والمثالب فتلصصها
بهذا الشعب، الذي خذل أمام العثمانيين . ولسكنه لم يفرط في حق وطنه
وشرفه، بل دافع عنهما أروع دفاع وأكرمهم . وشعوب العالم كلها يتناوب
حياتها النصر والهزيمة .

وأما أنها غير منصفة، فلأنها لم تبحث عن العلل الطارئة . والعوامل
الداخلية التي انتهت به إلى الهزيمة أمام العثمانيين، ثم أمام الفرنسيين
والإنجليز . بل جعلوا سبب ذلك دوافع أصيلة في تكوين الشعب نفسه

(١) « دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر » :

(ج)

وإدراكه، والمقاييس التي يقيس بها أهداف الحياة والكرامة والشرف،
والحرص على الحرية والعزة . وكان يجب أن نهض عن هذه وتلك .
وأما أنها ضارّة بالغة الضرر . فليس يخفى ذلك على مفكر أو متأمل .
لأنها تهدر في نفوسنا كل معنى كريم ، وكل إحساس بالنخوة الوطنية ،
وكل شعور بمجد الماضي وكفاحه .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصة ، يذكرون دنلوب
وسياسته في وزارة المعارف . ولم يكن دنلوب شخصاً أكثر مما كان فكرة
ومذهباً . الغايةُ منهما إذابة كل شعور قومي ، وكل معنى من معاني
« التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الإنجليز ذلك عبثاً ،
بل كان هدفهم منه التمسك بسلطانهم واحتلالهم . كأنهما قدّر لا مفرّ
منه ، وأن تاريخ مصر كلّهُ ، والقيم الفردية والجماعية للمصريين .
أساسهما وقوامهما : الخضوع لحكم الغير والرضى به » .

ومن هنا تبدو الأهمية البالغة لتأريخ حياتنا ، في الماضي القريب والبعيد ،
من جديد . وتبدو ، أكثر وأكثر ، أهمية هذه الأسس الجديدة التي
دعونا وندعو لالتزامها في كتابة هذا التاريخ ودراسته . لتكون هذه
الدراسة تزكية لمواطننا الوطنية والقومية ، وتذكيراً لنا، ولشبابنا خاصة ، بماضى
آبائهم وأجدادهم ، وما بذل كثير منهم في سبيل الحق والشرف .

(د)

والوطن العربي . وليكون هذا التاريخ سيجلاً صادقاً لأجداد ماضينا ،
ولننصف به كثيرين من أبطالنا الذين ضحكوا وكأخسوا وبذلوا ثم
نسيهم تاريخ وطنهم . ولم يكن لهم ذنب إلا أنهم كانوا من الشعب ، أو
أن الظلم والظلام غلبهم وقهرهم . . . !

حتى من هزم من الملوك ، مثل سلطان مصر الشهيد طومان باي ،
أو فشل من الثائرين بعد نجاح ، مثل صاحب الزنج ، نجد أن التاريخ لم
ينصفه . إن لم يكن خذله هو أيضاً أو أهمله أو تجنى عليه وظلمه ، فصدق
في هؤلاء وأولئك ما قيل من شعرٍ قديم:
والناس من يلقَ خيراً قائلون له

ما يشتهي ، ولأمّ الخطيء الهبل . . .

وفي كتابنا هذا : « بطولات عربية » : دراسة لحياة طائفة من أبطالنا
العرب في التاريخ القديم والحديث . على هذه الأسس الجديدة . من هؤلاء
الأبطال من بذل حياته ودمه في صحارى المكسيك ووهادها ، أو في أدغال
إفريقيا ، عندما كانت تسمى : « القارة المظلمة » . أو على طوابي الإسكندرية
دفاعاً عن الشرف العربي ، أو في سواد العراق ومدنه وحواضره ، دفعاً
للظلم وتحريراً للعبيد وطلباً للعدل . ومنهم من بذل حياته ودمه في بيداء

(هـ)

الشام ، وصحراء العرب ، وسهول فلسطين . تحقيقاً للوحدة العربية الكبيرة الشاملة . ومنهم من تصدى للظلم والجبروت ، وتحدى إثم توفيق ، أو غدر محمد علي . فلم يمل ، ولم يلبس ، ولم يهادن . حتى قضى شهيداً مأجوراً ، أو بطلاً مذكوراً تضرب حياته للناس المثل والعبرة . ومنهم السلطان الشهيد الذي كان كفاحه مثلاً رائعاً للمعاناة والتضحية والصلابة والبذل والصبر ، كما كان حظه مثلاً للتعاسة والشقاء والعسر : ذلك الذي لم يبق سيفه مهما نُحْذِلْ ويهزَمَ مرةً بعد مرة ، حتى يُسْقَ ك دمه ظالماً كما يفعل بالمجرمين والقَتلة والصعاليك . وهو ، قبل مقتله ، يجابه عدوه القاهر أمام رجاله ويجادله حتى يُخزيه . ثم يقف أمام جلاّده الذي يضع الحبل حول عنقه فلا ينسى أنه ملك وسلطان ، « فيأمر » الشانق بأن : أنجز عمَلَك ... ! ويكون ذلك آخر ما نطق من القول . ومنهم الأمير الذي هجر قصوره وجاهه وأمواله ليسير من بلاد المغرب فيحارب الفرنسيين في البحيرة ويهزّمهم ... ! منهم المرأة التي أنقذت شعبها من المجاعة بحيلتها وشجاعتها ، ومنهم الذي ضحى حياته في سكون وصمت فعرّفنا بطولته وبذله ، وجهلنا عنه كل شيء ، حتى اسمه ... ! منهم الصبيّ والفتى ، ومنهم المسلم والمسيحي واليهودي ، كلهم ضحى وبذل ، في سبيل وطننا العربي الكبير .

وقد تباعدت وحدة الزمان والمكان في هذه البطولات التي سردناها

(و)

من تاريخنا القديم والحديث . ولكنّ أمراً واحداً يجمعها ويربط بينها : هو أنها صدرت من أبطالٍ ضمتهم وطننا العربيّ الكبير ، وجرت أحداثها على أرض هذا الوطن الكبير .

وفي كتابنا هذا فصول موجزة عن بطولات خالدة أباها شباب لم يبلغ بعضهم سنّ العشرين ، وقعت أحداثها في أزقة حتى سيدنا الحسين بالقياهرة ، أو على جبال السفند في أقصى الشرق ، أو بين رياضِ غرناطة وأزهارها ومياهها الجارية في أقصى الغرب . أو على أرض مؤتة في البلقاء من فلسطين الشهيدة . أو بين بطاح المدينة المكرمة ، أو على سوادِ قرية « الققاعى » من صعيد مصر ، بطولات صنعها شباب ، وشهدتها بقاع بعيدة قريبة من وطننا العربيّ الكبير ، بعيدة في الموقع والمكان ، قريبة أو موحدة في الشعور والعاطفة والإحساس .

وسيجد شبابنا خاصةً ، في وطننا العربيّ الكبير ، من هذه البطولات المبدّلة أروع الأمثال .

سبحر هذه البطولات وتلك ، أهدبها إلى : وطننا هذا
العربيّ الكبير .

محمود الشرفاوى

القاهرة : ٣١ مارس ١٩٦١

رايات مصرية على أرض المكسيك

هذه قصة من قصص البطولة النادرة ، سجلتها فرقة مصرية سودانية في القرن التاسع عشر ، وكتبت صفحاتها المشرفة بين وهاد بلاد المكسيك وجبالها وأحراشها الموبوءة بالحمى الصفراء والدوسنتاريا .

كانت مصر والسودان ، في ذلك الوقت ، بلداً واحداً ، يدافع جنوده عن راية واحدة . ويتقاسمون ، في ظل هذه الراية ، الأجداد والبطولات جنباً إلى جنب .

واقترضت مصالح فرنسا وإنجلترا وأسبانيا ، في سنة ١٨٦١ أن تعلن حكوماتها الحرب على المكسيك ، واشتركت إنجلترا وأسبانيا في هذه الحرب فترة وجيزة ، ثم تخلفتا وتوقفتا ، وتركتا فرنسا وحدها تخوض حرباً قاسية . وكانت فرنسا يوم ذاك تحت حكم نابليون الثالث . وبينها وبين مصر علائق وشيجة ومنافع متبادلة بدأها محمد علي عندما احتال على حكم مصر واختلسه من أهلها ثم اتخذ من فرنسا حليفاً له وسنداً ، ودامت هذه العلائق يحرق عليها أبناؤه من بعده ويتوارثها ولاية مصر من أسرته السابقة .

وتقدم نابليون الثالث إلى حفيده خديوي مصر سعيد باشا يرجوه في

— ٤ —

أن يمدّه ببعض الجنود السودانيين والمصريين ليستعين بهم في حرب المكسيك هذه، بعد أن تخلت عنه حليفته : إنجلترا وأسبانيا . فلبى سعيد رغبة صديقه الإمبراطور وأرسل له فرقة منهم . مؤلفة من ٤٥٣ ضابطا وصف جنديا : « محمد أفندي الماس » . وقد أفلح هؤلاء الجنود من الإسكندرية على ظهر الباخرة الفرنسية : « السين » في ٨ من يناير سنة ١٨٦٣ فوصلوا « فيلا كروز » بالمكسيك بعد سبعة وأربعين يوما من رحيلهم ، وبعد رحلة شاقة مضية مات فيها سبعة من الجنود . وكان سفرهم من الإسكندرية قبل وفاة سعيد باشا بثلاثة أسابيع .

بقيت هذه الفرقة المصرية السودانية في المكسيك من ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣ إلى ١٢ مارس من سنة ١٨٦٧ . أى أربع سنوات وسبعة عشر يوما ، اشتركت خلالها في ٤٨ موقعة انتصرت فيها — كلها — على أعدائها ، بلا استثناء . مع أنها كانت دائما أقل منهم عدداً . ولما عادت إلى فرنسا ، ثم إلى مصر ، كان عدد من بقي من أفرادها ٣١٣ ضابطا وجنديا . أى أنها فقدت في هذه الحرب الضروس في أكثر من أربع سنوات لقيت فيها ، مع الحرب ، كثيرا من الأمراض والأوبئة : ٩٥٠ جنديا وضابطا .

* * *

وقد أشادت التقارير الفرنسية عن هذه الحرب بمقاومت به هذه الفرقة المصرية السودانية من ضروب البسالة الفائقة والمقدرة الممتازة واليقظة والبراعة في إطلاق النار . وقالت بعض التقارير إن جنود هذه الفرقة كانوا يختارون للمواقع التي لا تستطيع الجنود الفرنسية أن تصمد فيها .

في بعض هذه التقارير أن إحدى مدن المسكسيك الكبرى حوصرت ثم سقطت ، واستسلم من حاميتها ستة وعشرون جنراً ، و ٩٠٠ ضابط ، و ١٢ ألف جندي . وكلفت الفرقة المصرية السودانية بحماية الساحل بين هذه المدينة [Pwepia] وبين البحر ، فقامت على هذه الحماية ، بكفاية جعلت القائد يقول : « إنه ليس لديه ما يبيده بشأنهم ، إلا الإطراء والثناء من كل الوجوه » .

وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣ نشبت معركة بين هذه الفرقة وأعدائها قال القائد في تقريره عنها ما يلي : « لقد كلل هذا القتال رؤوس السودانيين المصريين الذين قاموا بأعبائه ، بأسمى أكاليل الفخر . فإنهم لم يبالوا بالنار المنصبة عليهم من الأعداء ، وردّوهم — وهم يزدون عليهم في العدد تسع مرات — مدحورين » .

وفي ٢٢ إبريل من سنة ١٨٦٤ كتب هذا القائد يقول : « لقد سلك
السودانيون المصريون مسلكاً برهن على بطولتهم ، فقاتلوا عدداً يربو على
أضعاف عددهم ، وبمواهبهم بما بلغوه من الشجاعة الفائقة » .

ورفع القائد ، في ١٢ من يوليو سنة ١٨٦٤ ، تقريراً إلى وزارة الحربية
الفرنسية يذكر فيه ما أثبت به الفرقة في الحرب ، ويثنى عليها أعظم الثناء
فيقول : « إن هؤلاء السودانيين المصريين يسرفون في القتال إلى درجة
ملحوظة الشجاعة . وإني لم أر في حياتي ألدأ حماسة تضارع حماسهم . فقد
كانت عيونهم وحدها هي التي تتكلم ، وكانت جرأتهم تذهل العقول
وتحير الأبواب . حتى كأنهم لم يكونوا جنوداً بل أسوداً » .

ورفعت بين ٢١ و ٢٤ يناير من سنة ١٨٦٥ ثلاث معارك كبرى ،
اشتركت فيها هذه الفرقة ولقيت فيها كثيراً من المشقة والجهد الذي يصعب
احتماله . فكتب عنها القائد العام للمناطق الحارة بالمكسيك ما يلي : « من
الصعب أن يجد الإنسان ما يعبر به عن بأس هؤلاء الجنود وصبرهم على
الحرمان واحتمال المشاق ، وبسالتهم ، وحميتهم في إطلاق النار ، وجأدهم
على السير » .

وكانت هذه الفرقة تحتل متسعاً من الأرض مساحته ١٦٠ كيلومتراً ،
وكانت بعض نقط الحراسة لا يزيد عدد جنودها على ٣٠ جندياً ، ومع ذلك

استطاعت أن تبث الرعب في قلوب عصابات من المكسيكيين ، يتراوح عددها بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جندي . وقد ذكر القائد عنهم في ذلك مايلي :
 « يالها من يقظة ، ويالهم من أبطال ، تملك حب القيام بالواجب أفئدتهم . فهم لا ينفكّون عن القيام به ، حتى أنه لم يحدث مطلقاً أن يوغت جندي منهم فوجد غائباً عن مكان حراسته . وهم يضاعفون ، من أنفسهم ، الحرس ليلاً إلى ثلاثة أمثاله ، ليأمنوا كل مباغته » .

ومن المواقف البارزة لهؤلاء الجنود ، أن عشرين منهم ، على رأسهم ملازم ، أرسلوا لتعزيز حامية فانقض عليهم مائتا مكسيكي وهم في الطريق ، فوصلهم ناراً حامية حتى أوقعوا في صفوفهم الإرتباك ثم أسرعوا إلى كهف تحصنوا فيه ، ودافعوا عن أنفسهم ، حتى وصل إليهم مدد من الجنود فأنقذوهم .

وفي ليلة ٢٥ يوليو من سنة ١٨٦٤ هاجمت فرقة من ٢٠٠ مكسيكي ٢٦ جندياً منهم ، فظلوا يحاربونهم حتى أصبح الصبح ، وانسحب المهاجمون تاركين تسعة من القتلى ، وعدداً من الجرحى .

ومع هذه الشجاعة الفائقة ، والقدرة الممتازة في القتال والحرب والصبر العجيب على المتاعب والمشقات . فقد امتازت هذه الفرقة المصرية السودانية في سلوكها وأخلاقها واستقامة أفرادها جميعاً ، حتى وصل حسن الثناء عليها

— ٨ —

إلى مسامع القادة في فرنسا ، وإلى مصر بعد ذلك . وسجلته لهم الرسائل والوثائق الرسمية ، مما كان شرفاً لهم ولوطنهم .

وقد نالت هذه الفرقة ، ضباطاً وجنوداً ، تقديرًا عظيمًا وسمة رفيعة ، في فرنسا وفي مصر ، بسبب هذه الأعمال الرائعة التي قامت بها ، والأخلاق العسكرية الرفيعة التي التزمتهما في سلوكهما . فزال كثير منهم أوسمة الشرف العسكرية الرفيعة .

وبعد أن أنهت الفرقة مهمتها في المكسيك ، ونالت فيها هذا القدر العظيم من التوفيق والثناء ، عادت إلى مصر . وفي طريق عودتها إليها أقامت في فرنسا بعض الوقت . ولقيت هناك أعظم مظاهر الترحيب والتكريم والإعزاز .

وضعت تحت إشراف قائد الحرس الإمبراطوري لنابليون الثالث . وأقيم لها عرض عسكري رائع في باريس بعد ظهر يوم ٣ مايو من سنة ١٨٦٨ وشهد العرض الإمبراطور نابليون بنفسه ، وكان إلى جواره « ناظر الجهادية المصرية » شاهين باشا . وبعد انتهاء العرض قدم الإمبراطور التهنية إلى قائد الفرقة على بسالة جنوده وشجاعتهم ومقدرتهم ومساهماتهم بكفاية تامة مشرفه في هذه الحرب القاسية ، ثم قدم لهم المكافآت .

وعادت الفرقة بعد ذلك إلى مصر فاستقبلت فيها بكل تكريم وتقدير .

أقام لها إسماعيل ، خديوى مصر ، عرضاً عسكرياً فى فناء قصر رأس التين ، وأقام لها لطيف باشا حفلة شائقة تحت رئاسة رئيس الوزراء ، شريف باشا . وأنعم إسماعيل على الضباط والجنود برتب عسكرية ، ووجه إليهم ثناء عظيم ، وأبقى مرتباتهم كاملة ، معاشاً لهم بعد اعتزالهم الخدمة . وأمر لهم بمسكن خاص . وبعد ذلك أنعم على قائد الفرقة برتبة الأميرالاي ، ووجه إليه هذا الخطاب ، الذى يدل على عظيم التقدير . ونحن ننشره بنصه لما فيه من الدلالة ، ولما له من قيمة تاريخية :

« افتخار الأكبر والأكارم ، محمد ألماس بك الذى كان بكباشى الأورطة السودانية المصرية التى كانت بمكسيكا ورقى إلى رتبة أميرالاي ، زيد علوه .

بما أنه من عادتنا المألوفة ، وسجيتنا المعروفة ، مكافأة ذوى الاجتهاد ، وأرباب الصداقة والرشاد ، وتبليغهم المراد . وقد سرنى ما بدا فى جهات مكسيكا من الفرقة المصرية ، التى قمت بحسن إدارتها ، وما شهدت لها به الألسن فى ميادين القتال ، من براعتها فى فنون الحروب ومهارتها ، إعلاء لشأن الراية العسكرية ، وإعلاننا لشرف العساكر المصرية ، مع غربة الأوطان ، وتباعد المكان . وسرنى أيضاً ما ثبت لها من الأخلاق البهية ، والسيرة المرضية والاستقامة الكلية . كما سرنى الآن عودة هذه الفرقة للديار ،

ر فمة أعلام الفخر والمسرة والاستبشار » ثم إلى ذلك إبلاغه الإنعام عليه برتبة الأميرالاي .

ومحمد بك الماس هذا بقي في خدمة الجيش حتى وصل إلى رتبة اللواء، واشترك بعد ذلك في حروب السودان . وكان ، عندما سافرت الأورطة إلى المكسيك ، وكيلا لقائدها . أما قائدها . البسكباشي جبرة الله محمد أفندي : فقد مات بالحمى الصفراء في مايو سنة ١٨١٣ . ، وأثنت عليه القيادة الفرنسية ثناء كبيراً . وأرسلت حكومتها خمسة آلاف فرنك إلى الحكومة المصرية ، لتسلمها إلى ورثته تقديراً منها لشجاعته وحسن بلائه في الحرب .

وينب أن نقول هنا إن هذا التكريم من إسماعيل وحكومته لم يقصد به تمجيد هذه الفرقة الباساء والإشادة ببطلانها . بل كان الغرض منه التظاهر والمباهاة ، والتعرب إلى فرنسا وإلى إمبراطورها نابليون الثالث صديق إسماعيل وسعيد من قبله .

والذي يحكم مصر كما كان يحكمها إسماعيل : يستذل شعبها ، ويمتهن كرامتها ، ويفتصب أموالها لينفقها في شرّ السبل ، كما كان يفعل إسماعيل ، الذي يحكم مصر على هذه الصورة لا ينتظر منه أن يمجّد جنودها أو أن يشيد ببطولاتهم وأمجادهم .

* * *

هذه قصة بطولة عربية ، لا تنتهى من تسجيلها قبل أن نستخلص

منها بعض العبر : من هذه العبر أن حكام مصر وولائها ، يوم ذاك ، كانوا يرضون عواطفهم الخاصة ويحاولون أصدقاءهم على حساب هذا الدم المصري الخالص . فهذا سعيد ، خديوى مصر وواليتها ، يقدم إلى صديقه نابليون الثالث هذه الفرقة المصرية الباسلة « هدية » له ، يشترك بها ، باسم فرنسا ولتحقيق أطامعها ، فى حرب لا ناقة لمصر فيها ولا جمل ، كما يقول المثل العربى القديم ، ولم تكن فرنسا يومئذ - كما لم تكن يوماً ما بعد ذلك ولا قبله — صديقة لمصر ، ولم يكن نابليون الثالث ولا إمبراطوريته حريصين على خير مصر أو الوفاء لها وتقدير معونتها . بل كانت الصداقة بين سعيد وبين الإمبراطور صداقة الذئب للحمل ، كما يقولون ، لفرنسا منها الغنم كله ، وعلى مصر وشعبها المقهور ، الغرم كله . فقد كانت فرنسا ، كما كان الغرب كله يوم ذاك ، يآتمر بوطننا مصر ، بل بالوطن العربى جميعه ، ويحيك لها وله الدسائس والمؤامرات . بل يغزوها ، بالحديد والنار قبل ذلك وبعد ذلك ، فى الجزائر وفى مصر ، وفى غيرها من أقطار وطننا العربى هذا . ولكن سعيداً ، خديوى مصر وواليتها « يهدى » جنود هذا الوطن إلى عدوّه وغريمه ليحارب فى مجاهل المكسيك وبين أوبشتها وأمراسها . ليرضى نزوة خاصة له ، ويحامل عدواً فى ثياب صديق .

وماذا أخذ سعيد ، حاكم مصر وواليتها ، والأمين على مصالحها ، من

صديقه الإمبراطور لقاء هذه الجهود الفائقة الممتازة التي بذلها جند مصر والسودان هؤلاء . ولقاء الآلام والحن التي حلت بهم في أرض المكسيك وبين سهولها ووديانها وجبالها ومن مواجهة أمراضها وأوبئتها وأجوائها...؟ .

ماذا أفادت مصر وأفاد حاكمها وواليتها سعيد من صديقه الإمبراطور لقاء هذا الدم العربي الخالص الذي أريق على أرض المكسيك في هذه الحرب...؟ .

إنها وإنه لم يفيدا شيئاً ، بل لقد بذل سعيد وبذلت مصر ، في نفس الوقت ، وأعطيا ، لنفس الإمبراطور . بذل سعيد ، من مصالح مصر وباسمها ، نصديقه الإمبراطور نابليون الثالث نفسه « منحة » قناة السويس ، التي أعطاها لصديقه المهندس الفرنسي دليسبس ، هذه « المنحة » التي لقيت مصر منها من المحنة والبلاء والشقوة والمغارم ما لقيت . وهذا الامتياز الذي نعرف من تاريخه ما نعرف .

وهكذا كانت تساس أمور وطننا مصر ، وتعالج شؤونه ومصالحه .

ومن هذه العبر ، أن هذه الفرقة السودانية المصرية أبدت هذه الشجاعة الفائقة وهذا الصبر النادر العجيب ، وهي تحارب في أرض بعيدة نائية تفصلها عن وطنها آلاف الأميال من الأرض والماء ، وتقاتل عن قضية لا تعرف عنها شيئاً ولا يعرف وطنها عنها شيئاً . فهي تحارب وفي نفوس

أفرادها « فراغ » عاطفي^١ نحو قضية لا تنير في قلوب أفرادها حمية ولا نخوة ولا غضباً ، وهي — مع ذلك — تبذل في سبيلها الدم والحياة .

وأبدت الفرقة هذا الخلق الرفيع وهي بعيدة عن وطنها وأرضها وناسها وهم لا يسكادون يسمعون أو يعرفون خيراً من أخبارها يسوء هم أن يعرفوه أو يظهروا عليه . فكيف لو أن هذه الفرقة كانت تحارب دفاعاً عن أرضها ووطنها وحُرُماتها وشرف قومها وأبنائها وأهلها . . ؟ وتقاتل عن قضية تعرفها وتفهمها وتنير في قلوب أفرادها الحمية والغضب والنخوة . . ؟ وتشعر بالتجاوب مع قومها وناسها وتحس أن عيونهم تقع عليهم وأسماعهم تلتقف أنباء جهادهم وسلوكهم .

لقد حارب أفراد هذه الفرقة بهذه الشجاعة التي رأينا وصفها لأن الشجاعة فطرة قلوبهم ، والموت في ساحة الشرف والواجب مسجّية نفوسهم . وأظهروا خلق الشّم والترفّع لأن الخلق السكريم شيمة لهم وجبلة فطروا عليها .

وتلك أسمى آيات الشجاعة ، وهذه غاية الغايات في أصالة الخلق وطهارة النفس واستقامة السلوك .

في الإسكندرية أحنت أيتها الجندى المصرى..!

جاء يوم ١١ يوليو من سنة ١٨٨٢ وقد أحكم الأميرال سيمور تدبيره لضرب الإسكندرية، ولم تكن المدينة ولا حاميتها مهيئة لهذا العدوان الذى لم يكن له مبرر ما. وقد اعترف الأميرال سيمور نفسه فى تقاريره التى رفعها للأمرالية البحرية بعد غزو الإسكندرية بأن القوى لم تكن متكافئة، ومع ذلك فقد شهد شهود العيان الذين اشتركوا فى هذا العدوان، بأن جنود الحامية المصرية دافعوا دفاعاً مجيداً مشرفاً عن وطنهم وعن شرفهم العسكرى



كانت حامية الإسكندرية تتكون من مجموعة قلاع تمتد من طابية السلسلة إلى طابية العجمى، وكان يدافع عن هذه الحصون ٩٤٨٧ من الضباط وصف الضباط والجنود، منهم المصرى ومنهم السودانى والمغربى، ومنهم الشركسى، وكان من ضباط الحامية القائم مقام محمد نسيم بك والد المغفور له توفيق نسيم باشا؛ أحد رؤساء الوزارات المصرية السابقة، والبكباشى سيف النصر أفندى، والد المرحوم هدى سيف النصر باشا وزير الحربية الأسبق. وبدأت بوارج الأسطول الإنجليزى تلتقى قذائفها على طوابى الإسكندرية من الساعة السابعة صباح يوم ١١ يوليو، فلم تجب عليها الحامية

إلا بعد القذيفة الخامسة ، وبعض الطوابى لم تبدأ قذف قنابلها إلا بعد العاشرة . وكان الخديو ومجلس وزراء مصر قرّرا ذلك . ناسئة عرابي ، لتسجيل العدوان على الإنجليز . وفي الساعة السادسة من مساء اليوم أنفسه سككت القلاع المصرية التي كانت مدافعها قديمة مكشوفة ضعيفة التحصين لم تعد لمثل هذا الهجوم الغادر ، ولكن هذه القلاع والطوابى لم تسكت إلا بعد أن سجل رجالها من ضروب الشجاعة والبسالة والمقدرة ما يشرف مصر ويشرفهم ، وقد سقط منهم قتلى في ميدان الشرف ٧٠٠ ؛ ومات من الإنجليز خمسة وجرح ثمانية وعشرون . وفي هذا أكبر دليل على فقدان التكافؤ ، بل التقارب ، بين قوى الفريقين ، وعلى مبلغ الشجاعة والتضحية التي اتصف بها جنود هذه الحامية .

* * *

أرسل الأميرال سيمور ، قائد الأسطول المعتدى ، كتابا إلى الأميرالية البحرية البريطانية تاريخه ١٤ يوليو من سنة ١٨٨٢ بعد انتهاء المعارك ودخول الإنجليز الإسكندرية قال فيه :

« ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة ، وكانوا يحاوبون النيران الشديدة التي تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة إلى أن قتل عدد كبير منهم »
وأرسل تقريرا آخر إلى الأميرالية بتاريخ ٢٠ يوليو قال فيه عن إحدى

طوباني الإسكندرية : « وكانت حركات بطاريات حصن الاسبتالية من البداية إلى النهاية تساس بطريقة موفقة جداً، ومع أن هذا الحصن أسيكت وقتاً ما على إثر ضربة من المدرعة انفلكسييل ، فإن جنوده لم يتخلّوا عن مدافعهم إلا بعد أن أكرهتهم نيران مدافع هذه المدرعة والأسطول الخارجى على التخلي عنها ».

وكان يشهد الواقعة ميجر من رجال المخابرات البريطانية اسمه «تلك» وقد ألف بعد ذلك كتاباً سماه «ذكريات أربعين عاماً في الخدمة» فكتب فيه صفحات كلها فخار الحامية الإسكندرية المصرية وتقدير لبطولتها ، ومما قاله في ذلك :

«وعندى أنه لا يستطيع إلا القليل من الناس أن يؤدوا واجباتهم بمثل ما أداها أولئك الجنود الذين كانوا في الحصون في ذلك اليوم . وليس في مقدور الإنسان أن يخفى دهشته وإعجابه من أن هؤلاء الجنود في الحالة التي كانت فيها النيران تتحيتهم من كل جهة ، أرادوا أن يرفعوا أحد المدافع من سقطته التي سقطها ، وفي حالة أخرى ، وهم في معمرة القتال ، حاولوا أن يرجعوا مدفعاً إلى موضعه ، وهم تحت وابل من النيران^(١) » .

(١) ص : ٢٨٦ من الكتاب .

وكان جودريتش ، أحد رجال البحرية الأمريكية ، يشاهد المعركة من ظهر السفينة الحربية الأمريكية « لانكاستر » فكتب تقريراً قال فيه :

« ... وجواب المصريون — رغم التفاوت الذى كان بينهما من ناحية عيار المدافع — على النيران المتدفقة من أفواه مدافع الأسطول الإنجليزى إجابة مدهشة لم تكن متوقعة بقاتاً ، وبشجاعة تستوجب الإعجاب .

وعندما كانت المدرعة انفاسكيل ترسل مقذوفات زنة كل منها ١٧٠٠ رطل . على حصن الفخار وتصيب سائر فتشير الانقاض والأتربة إلى ارتفاع الفخار نفسه ، ويخيل للمرء عند ذلك أنه ليس من الممكن أن يعيش إنسان تحت نيران كهذه ، لا يلبث بعد دقائق ، عندما ينشق الغبار أن يرى جنود المدفعية المصرية ملازمين مواقفهم يطلقون قذائفهم على خصمهم الرهيب . »

وكذلك شهد بمثل هذه الشهادات التى تبيض لها الوجوه ، البارون الإنجليزى ديكورل بك ، وكان وكيلاً لمصلحة الجمارك المصرية ، وشهد (م ٢ — بطولات عربية)

المركة من على ظهر السفينة تنجور ، إحدى سفن الأسطول المعتدى ^(١) ،
وشهد بمثلها مسيو سكوتيدس ، وكيل قنصل اليونان في الإسكندرية
إذ ذاك ^(٢) .

وقد قال إن جنود الحامية المصرية كانوا في ذلك اليوم « يملون »
— بحق — الأبطال الذين يدفعون غارات الجبابرة .

* * *

وإني لا أستطيع — وأنا أقرأ هذه الشهادات عن بعض أبناء وطني —
أن أترك شهادة أشعر بنشوة وغار وراحة قلب ، كما قرأتها ، وأريد
أن أشعر بمثلها قلوب العرب جميعا .

« لقد عجبت من هذه البطولة التي لا يمكنني أن أدرك كنهها ، والتي
كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن « الاطة » . كما عجبت
أشد العجب من الموقف الذي وقفه قائد هذا الحصن قرب سارية علمه ،
وهو بمفرده والمنظار في يده ينظر به الأثر الذي أحدثته المقذوفات التي كانت
تنطلق . لقد كان حقاً رجلاً شجاعاً متحدّياً تلك القذائف التي كانت تسقط
على حصنه فيحجب عليها » .

(١) أنظر ص : ٢٠٠ من كتابه : « ذكريات رجل إنجليزي عن مصر » .

(٢) أنظر ص : ١٦٨ — ١٦٩ من : « مصر المعاصرة وعرابي باشا » .

وقد ظل هذا الحصن يقاوم باستماتة وعناد وإصرار حتى أصيب مستودع الذخيرة فيه إصابة مباشرة فنفسف. وقتل فيه عدد كبير من الضباط والجنود. أما هذا الضابط البطل ، قائد هذا الحصن ، فقد وصف الكابتن وولترجود — خصمه وغريمه ومحاربه — وصف هذا الكابتن الإنجليزي شجاعته واستشهاده في هذه الكلمات البسيطة الرائعة :

«و الضابط الذى كان واقفاً فيه وقفة الأسد فى عرينه ، طار فى الهواء هو وسارية علمه ^(١)»

وقد تجمعت لضرب هذا الحصن وحده خمس بوارج من أقوى بوارج الأسطول الإنجليزي ، ولم يعرف اسم قائده البطـل الذى مات هذه الميثة المشرفة ،

والكلمات التى أختتم بها هذا الفصل هى صورة رائعة كتبها الميجر « تلك » Tulloch ، رجل الخبرات الإنجليزي الذى رأينا شهادته فى أول هذا الحديث :

(١) تقرير الكابتن وولترجود سول قومندان البخرة « تشلزن »

«لقد كان حقاً من العجيب العجيب أن أرى هؤلاء الجنود ، رغم شدة
الضرب ، واقفين في أما كنهم ملازمين مدافعهم ، وقد رأيت أكثر من
مرة قذيفة من قذائفنا تدخل في إحدى كوات مدافعهم فقلت في نفسي :
لقد قضى على هذا المدفع وأمسى في حيز العدم . ولكن لم ألبث بعد ذلك
أن أقول : كلا ! ثم كلا ! فقد كان الجواب من هذا المدفع يعود في الوقت
الملائم ، وقد أتى مرة من المرات بسرعة فائقة جداً ، حتى لم أتمكن نفسي
فوثبت إلى حافة السفينة ورفعت يدي صائحاً : لقد أجسدت العمل أيها
الجندي المصري . . .»

وأعتقد أن القارىء سيعجب منلى لروح هذا الإنجليزى الذى لا يستطيع
أن يخفى سروره وإعجابه بالعمل الجيد ولو كان من عدوه .

الهزيمة ليست عيباً ولا معرة ، ولكن المعرة والخزى هما الإستسلام
لها والرضى بنتائجها .

شجاعة وشرف

وقفت حامية الأسكندرية وأبطالها - وخاصة رجال حاميتي حصن
« ألاطة » و « الاسبتالية » - هذا الموقف الخالد المشرف الرائع ، ومن
ورائها شعب مصر المناضل الصبور .

ودافع عرابي وجيشه وشعبه بعد ذلك في « كفر الدوار »
و « التل الكبير » .

وليس من شأنى الآن أن أفصل أسباب تلك الهزيمة التى أصابت
جيش العرابيين وشعبهم يوم ذاك . ولكننا نعرف ويعرف الناس أن من
أقوى تلك الأسباب : « الخيانة » .

* * *

دخلت الجيوش الإنجليزية القاهرة ، واستولت على البلاد كلها ، وعاد
توفيق ، الحاكم الخائن ، إلى قصره فى عابدين يجلس على عرشه الزائف
المخدول ، بعد أن كان يسهر الليل فى « رأس التين » متربصاً خائفاً يربق

البحر ويهون على نفسه الأسرويمد لها حبل الأمانى بأن ينتصر الإنجليز؛ فيحكم ويتسلط وينتقم ، ولو أنه انتقام الذليل ، فإن هزم الإنجليز ركب معهم البحر وفارق .

وانتصرت الخليانة والغدر ، وانتهت الثورة العربية إلى حيث نعرف ، وذهب عرابى — كما يذهب المهزم الشريف الشجاع — إلى خصمه وعدوه الغالب . يضع نفسه تحت تصرفه أسير حرب . ودخل عرابى على عدوه الغالب الجنرال « رورى لو » فى ثكنات قصر النيل يلبس ثيابه العسكرية ويحمل سيفه . وكان معه طلبه باشا شريكه فى الثورة وفى الحرب وجيء بالزعيمين الشريفين إلى مجلس القائد المنتصر فسلما سيفيهما إليه . وأمر القائد بحبسهما فى إحدى حجرات « قصر النيل » .

ولم يستطع شعب القاهرة أن يقبل الهزيمة أو أن يستسلم . فنارت فى شوارعها وطرقاتها الثورات ، وخرج الناس فى « باب الشعرية » و « الحسينية » خاصة يحملون العصى والهاويات والأخشاب يحاولون أن يقفوا بها فى وجه الجنود الإنجليز . وكانت حركة فيها من ثورة الغضب وفورة العاطفة أكثر مما فيها من السداد والحكمة . فعالجها محافظ العاصمة : إبراهيم بك فوزى ، حتى صرف الثأرين عنها .

وكان من رأى محمود سامى البارودى أن يستمر الدفاع عن أرض الوطن ، بعد تسليم القاهرة ، وأن ينسحب الجيش والشعب المحارب إلى الصعيد ، ثم إلى السودان إذا لزم الأمر ، وأن تغرق مديرتى الشرقية والدقهلية بماء النيل لتعويق الجيش الإنجليزى وتأخير زحفه إلى داخل البلاد . وأن توسق جميع السفن بالذخيرة وتوجه إلى الصعيد لتكون تحت تصرف الجيش والمحاربين . ولكن رأى البارودى هذا لم يلق قبولا .

هكذا انتهت الثورة العربية ، وانتهت أعمال المقاومة الرسمية والشعبية . وأصبح زعيم الثورة ومناصروه : عرابى وإخوانه ، فى سجن الإنجليز . وكان من الممكن أن يعامل هؤلاء الأبطال وزعيمهم معاملة الجندى الشجاع الذى خانته أقداره ، فسلم نفسه أسير حرب . كان يمكن أن يلقى عرابى معاملة كريمة وأمانة ، كما يستحق أن يلقى محارب شجاع شريف ، دافع عن وطنه وشرف قومه ، ولعل بعض القواد من الإنجليز كان يريد ذلك ويعتقده . ولكن كان من ورائهم خبث السياسة الإنجليزية وشرها . وكان من وراء هذا وذاك حقد توفيق .

وألفت المجالس العسكرية وأجريت المحاكمات لعرابى وإخوانه ، وكانت محاكمات صورية لاصلة لها بالعدالة ولا بالحق والشرف . فإن محاكمة عرابى ، مثلاً لم تستغرق سوى ساعة من شهر ٠٠٠ !

وليس هذا الفصل خاصا بمحاكمة عرابي ، بل نريد أن نعرض فيه صورة من أبرز صور الشجاعة والشرف التي شهدتها هذه المحاكمات ، والتي كان أبطالها رجلين من مناصري هذه الثورة ومؤيديها . وهما رجلان ، بل بطلان ، من رجال هذا الشعب الذي لم يفتر يوماً عن مناهضة جلاّديه .

إن في طيّ تاريخنا الحديث فصولا رائعة لكفاحنا وجهادنا لا تزال مطوية ، لم تدرس ولم تعرف ولم تقدر قدرها ، وفي طياتها بطولات لرجال ضحوا بأموالهم وأرواحهم في سبيل هذا الكفاح ، لا تزال سيرهم وقصص بطولتهم مطوية لم تدرس ولم تعرف ولم تقدر قدرها أيضاً ، وقد ترجمت لبعضهم من قبل^(١) ، ولكنني أعتقد أن أمام الباحثين الجادين من ذلك شيئاً كثيراً .

وهذان البطلان اللذان أتناول موقفهما اليوم في المحاكمة يضرّبان للناس مثلاً من أعظم الأمثال .

هذان البطلان هما : السيد حسن موسى العقاد ، وكان من أكابر

(١) أنظر فصل : « زعماء وأبطال » في الجزء الثالث من كتابنا : « دراسات في تاريخ الجري ، مصر في القرن الثامن عشر » ص ١١٣ - ١٣٣ من الطبعة الثانية « البيان العربي » .

تجار القاهرة ، والشيخ حسن العدوى وكان من أكبر العلماء .

وقبل أن أذكر موقف هذين البطلين العظمين وشجاعتهما، أشير إلى ملاحظة ذكرها عرابي نفسه في مذكراته ، هي أن موقف الشجاعة والبطولة أمام هذه المحاكمة ، هو المقياس الصادق لعظمة النفس ، فكلم من رجال نصروا الثورة العربية وآزروها إبَّان سلطانها بدافع الأمل أو الخوف أو المسaire ، فلما فشلت ، وعادت إلى توفيق ، بحراب الجيش الإنجليزي ، سلطة البطش والقهر ، تنكروا للعرايين ، ونكصوا على أعقابهم واستذلوا لتوفيق ورجاله ، ووقف بعضهم أمام هذه المحاكمة يتنصّل من « تهمة » مناصرة الثورة ، ويقسم أنه برىء منها « حبّاً في الحياة » ، وخوفاً من بطش الغالبين » كما يقول عرابي :

أما حسن موسى العقاد ، والشيخ حسن العدوى فقد كانا رجلين من طراز آخر .

لما تمت هزيمة العرايين ، أصدر توفيق في ٢٨ سبتمبر من سنة ١٨٨٢ أمراً بتأليف لجنة تحقيق مع الذين قاموا بها ، وإحالتهم إلى المحكمة العسكرية . وكانت لجنة التحقيق مكونة تسكوينا عجيباً مجحفاً . إذ كان رئيسها وأعضاؤها من العناصر غير المصرية ، التي قامت الثورة للقضاء على استبدادها وطغيانها .

كانت اللجنة مؤلفة على النحو الآتي: الرئيس اسماعيل أيوب باشا «شركسى» .
الأعضاء : على باشا غالب «شركسى» . يوسف شهيدى باشا «شركسى» .
محمد زكى باشا «أرنؤودى» . سعد الدين باشا «تركى» . محمد بك حمدى
العظيم «غير مصرى» . مصطفى بك راغب «تركى» سليمان بك يسرى
«كردى» . مصطفى بك خلوصى «عجمى» . محمد بك مختار «تركى» .
وكانت الحكمتان اللتان ألفتا لنظر دعاوى المحاكمات على هذا النسق
ايضا . كانت المحكمة التى وقف أمامها حسن موسى العقاد والشيخ حسن
العدوى مؤلفة من : الرئيس محمد رؤوف باشا «كردى» الأعضاء : الفريق
إبراهيم باشا «تركى» . الفريق إسماعيل باشا كامل «شركسى» .
للواء خورشيد باشا كامل «شركسى» . سليمان نيازى باشا «أرنؤودى» .
عثمان لطيف باشا «شركسى» . سليمان بك نجأتى «شركسى» أحمد حسنين
باشا «مصرى» .

فهذه إحدى «المحاكم» التى ألفت لتحاكم زعماء مصريين على أرض
مصرية باسم «والى» مصر والتى حاكمتهم فعلا -

تؤلف من تسعة أعضاء ليس من بينها مصرى ، ورئيسها كذلك ليس
مصرياً . بل عدوٌ وخصيم لأهل مصر ، قام المصريون بثورتهم تلك للقضاء
على سيطرته وسيطرة بنى جنسه ، واستبدادهم العنصرى .

وهذه هي « المحكمة » الثانية تزلف من سبعة أعضاء كلهم غير مصري سوى عضو واحد ، قد يكون مصرياً بالنسبة والمولد ، ولكنه أجنبي القاب والعاطفة . ولذلك اختاره توفيق . أما الباكون ورئيسهم فكلهم عدو لمصر خصيم . يمتلىء قلبه بالغليظ والحقد على زعماء ثورتها الذين يحاكمهم .

ألفت المحكمة على هذا الوجه . وجاء دور السيد حسن العقاد ليقف أمامها ليسأل عن كثير من التهم و« الجرائم » التي ارتكبها بمناصرتة الثورة العربية .

يقول عرابي في مذكراته التي سماها : « كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية » : أن السيد حسن العقاد عندما وقف أمام هذه المحكمة تليت عليه رسائل ضبطت عنده . يصف فيها توفيق بأنه « أبل » وأنه لم تعد له ولاية على مصر . فقد خرج على الشرع والقانون بانضمامه للإنجليز ، وأن أوامر توفيق ومنشوراته لم يبق لها أي اعتبار ، بعد خلعه من ممثلي الشعب . فقال حسن العقاد إنه هو الذي كتب هذه الرسائل - مع أنها لم تضبط بخطه - واعترف بأنه وقع قرار عزل الخديوي راضياً مختاراً وسئل عن أموال كثيرة طائلة أنفقها من تجارته الواسعة ، ولم يبين في سجلاته مصادر إنفاقها ؛ فقال إنه أنفقها في سبيل الثورة العربية .

وأمام هذه المحكمة ، كما سجل عرابي أيضا ، اعترف الشيخ حسن العدوى بأنه قصد إلى « كفر الدوار » - والحرب دائرة فيها بين الإنجليز وعرابي - لإشجع الوطنيين ويثبت أقدام الجيش المصري ويبث الدعوة بين جنوده ضد توفيق . وأنه وقف في المؤتمر الذي عقده العراقيون فأعلن وجوب المقاومة ومواصلة الحرب - على الرغم من إعلان توفيق أن الإنجليز أصدقاؤه وحلفاؤه . وأمره للمصريين بالكف عن المقاومة - وأنه أرسل إلى عرابي ، والحرب قائمة ، رسائل يشجعه فيها ويؤازره ويدعوه بالنصر على توفيق . وأنه وقع قرار عزل الخديوي راضياً مختاراً .

وأبلغ من هذا في الدلالة على شجاعة الشيخ حسن العدوى وعظمة نفسه ، أن المحكمة سألته عن فتوى قيل أنه أصدرها بعزل توفيق شرعاً . فقال : إنى لم أصدر هذه الفتوى لأن أحدا لم يطلبها منى . ومع ذلك لو قدمت لى هذه المحكمة فتوى بعزل توفيق ، لما ترددت في توقيعها . وليس في وسع هذه المحكمة - وأعضاؤها مسلمون - أن تنكر أن الخديوي توفيق مستحق للعزل ، لأنه خرج على الدين وعلى الوطن .

هذان مصريان ، أحدهما تاجر كبير ، وثانيهما عالم كبير ، يضربان هذا المثل الرائع للشرف والرجولة والتحدى ، فإذا أردنا أن ندرك مافى هذا

الموقف من البطولة ، يجب أن نذكر إلى جانبه الملابس التي كانت تحيط به وبهما . فهذه ثورة قد فشلت ، وهزم قائدها ورجالها واستسلموا وسلموا أنفسهم ، أوقفوا عليهم ، أوفروا واختفوا ، هؤلاء الإنجليز يستولون على أرض الوطن ويحكمونه قاهرين ظافرين ، بما عند الظافر القاهر من شرّ وجبروت . وهذا عدوهم توفيق يحكم ويتسلط ، وتتحكم في قلبه ودمه عواطف الحقد والانتقام والإثم . وهذه جنوده ورجاله ينتشون ظهر الأرض وينبشون ، باطنها ليمطشوا بمن يقع في أيديهم من العربيين ومناصريهم . حتى بلغ عدد من قبض عليهم بهذه التهمة تسعة وعشرين ألفاً . وهذه محاكم الإنجليز وتوفيق تؤلف وتؤلب على ما ذكرنا ووصفنا .

في هذا الجو وبين هذه الملابس التي هزت كيان كثيرين وزعزعهم ، كما قال عرابي ، وقف حسن موسى العقاد والشيخ حسن العدوي هذا الموقف ، الذي يبلغ غاية المدى في تحدى توفيق وشره وحقه وجبروته ، ومن ورائه سطوة الإنجليز . لذلك يبلغ موقفهم هذا غاية المدى في الشرف والرجولة والشجاعة وعظمة النفس .

عراي الفلاح

قبل عشر سنوات نشر أمير من أعضاء أسرة محمد على السابقة مذكراته
في صحيفة مصرية ، وكان صاحب هذه المذكرات أكبر أعضاء هذه الأسرة
سنًا ومكانة.

أخذ صاحب المذكرات يتحدث عن مزايا أبيه توفيق وفضائله وخصاله
ويذكر مواهبه وثقافته و «أياديه» على مصر وشعبها . ثم تحدث عن
الأخطاء القليلة التي وقع فيها أبوه ، فقال الأمير السابق صاحب المذكرات :
إن أكبر الأخطاء التي ارتكبها أبوه الخديوي توفيق أنه أنعم برتبة الباشوية
على «الفلاح» عراي ! ...

يكتب هذا أمير كان يزعم أنه «مصري» وينشره في صحيفة مصرية
تصدر في مصر ليقراها المصريون «رعية» هذا الأمير ورعية أبيه وأسرته ،
ينشره على أهل مصر في منتصف القرن العشرين ، حيث كان العالم
— وما زال — يفور ويمور بعواطف القومية والديمقراطية والمساواة
والتخلص من التمييز والسيطرة والاستعلاء .

يصف الأمير السابق « عرابي » ، بل يعيرّه ويسبهه ، بأنه « فلاح » ويرى أكبر أخطاء أبيه أنه « تفضل » فأنعم على هذا « الفلاح » برتبة رفيعة لا يستحق أن ينال شرفها مصرى ، ولا يرى الأمير حرجاً ولا بأساً في أن يعيرَ المصريين جميعاً ويستهم بهذا الذى كتب .

وسنرى ، بعد الانتهاء من هذا الحديث ، كيف كان عرابي يعتزّ بنسبته إلى هؤلاء « الفلاحين » .

في ضحى اليوم الثالث من ديسمبر سنة ١٨٨٢ عقد ، في مبنى وزارة الأشغال الحالى بالقاهرة ، مجلس المحاكمة والذى تألف لمحاكمة عرابي ، ولم يعلن موعد المحاكمة ، فلم يشهده سوى أربعين ، نصفهم من مراسلى الصحف . وكان المقرر أن يتولى إعلان الاتهام أمام المحكمة رئيس قضايا الحكومة : المسيو بوريللى . ولكنه اعتذر عن ذلك لإحساسه بانحراف التحقيق والمحاكمة معاً . فابتعد بنفسه عن أن يشترك في مهزلة مخزية ، فجلس مكانه قومندان الحامية الإنجليزية ١٠٠٠ !

— خصماً وحكماً في وقت واحد — ثم جيء بعرابي من سجنه ... وكان قد وقع وثيقة يعلن فيها عصيانه على توفيق ، وأخرى يتعهد فيها بأن يلزم المبكان الذى تحدده الحكومة الإنجليزية لأقامته . وبعد إعلان الاتهام

والوثيقة التي يعترف فيها عرابى بعصيانته ، طلب عرابى أن يتولى محاميه الدفاع عنه . ولكن المحكمة لم تجب ، ورفعت الجلسة إلى عصر اليوم نفسه . فلما أعيدت نطق رئيسها بالحكم على عرابى : الإعدام . وبعد ذلك أعلن أن توفيق تعطف فأبدل حكم الإعدام بالنفى مدى الحياة ، تم ذلك كله فى عشر دقائق ، ثم رفعت الجلسة .

وأبعد عرابى إلى جزيرة سيلان فبقى فيها نحو عشرين سنة .

وقد ظل اسم عرابى بعد ذلك باقياً مذكوراً فى التاريخ المصرى الحديث مابقى فى مصر شعور بالقومية المصرية أو العربية . وسيظل هكذا على الدوام . وستظل الحركة العربية أو « هوجة عرابى » كما سماها معاصروه ، باقية مذكورة فى ضمير الشعب المصرى وتاريخه ، حية على لسان أفرادهم وفى قلوبهم بعد أن تحققت لمصر الحياة الحرة والسيادة التى جاهد عرابى لهما ، ولقى فى سبيلهما ما يلقي المجاهدون الأحرار .

سيظل اسم عرابى مذكوراً فى ضمير الأمة المصرية والعربية كبطل ، ومثل للشجاعة والسكفاح والإخلاص . وستظل ثورته رمزاً روحياً لأول حركة قومية قوية خالصة . وأول « تنبّه » عام وإحساس شامل بالقومية المصرية فى العصر الحديث . وأول هبة لتحقيق السيادة المصرية للدم المصرى .

وقد كتب السكاتبون والمؤرخون ، البحوث والتحقيقات عن عرابي
البطل وعن ثورته . ولكنى عرفت ، بمصادفة موفقة ، حديثاً عن العظمة
النفسية ، التي كان يتميز بها عرابي ، وعن الشعور الراسخ بالهزة الذاتية ،
التي كان يحسها بمجرد أنه مصرى وفلاح .

وقد بلغ عرابي من الرفعة والمجد ما بلغ ، وارتفع اسمه وعلا شأنه ،
إلى حيث علا وارتفع ، ولكن هذا كله لم يغير من نفسه ولا من شعوره ،
واعتزازه وفخاره بأنه مصرى وفلاح ، بل لقد جعل عرابي نسب فخره أنه
فلاح تحدر من أصالاب الفلاحين ، ونشأ مثلهم ومعهم بين الماء والطين .

قبل عشرين سنة عرفت شيخاً معمرأ في قرية « هرية رزنة » ،
قرية عرابي ، على بعد أميال ثلاثة من الرقازيق ، وكان قد تجاوز المائة
وتوفاه الله بعد ذلك بقليل .

هذا المعمر : « الشيخ على نجم » كان في قريته تلك صاحب « كتاب »
تعلم فيه وحفظ القرآن صبيةً هذه القرية وما يجاورها جيلاً بعد جيل ،
وكان أبوه من قبله معلماً وصاحب « كتاب » .

وقد قدر لي أن أجلس إلى هذا الشيخ المعمر ، قبل أن يتوفاه الله
بقليل ، وأن يحدثني عن ابن قريتهم : « عرابي » وأنه كان يتعلم القراءة
(م ٣ — بطولات عربية)

ويحفظ القرآن في كُتّاب أبيه ، وكان « عرابي » يصغره سنّاً وإدراكاً ، ويتخلف عنه في الحفظ . فكان محدّثي الشيخ - رحمه الله - « عريفاً » عليه ، كما يقولون في لغة كُتّاب القرية لذلك العصر .

وبقيت العلائق بين « العريف » المعلم الشيخ على نجم ، وبين زميله وتلميذه أحمد عرابي ، حتى انتهى هذا لما بلغ من مجد ومنزلة ، وكان من خاتمة الثورة العربية وخاتمة عرابي ما نعرف . ونفى عرابي إلى جزيرة سيلان ثم أعيد منها بعد عشرين سنة .

قال المعمر الشيخ ، رحمه الله :

وقصّدت ومعى زميل من شيوخ « هرية رزنة » نهبط مصر لنرى عرابي باشا بعد رجوعه من المنفى ، وكان اليوم يوم الجمعة ، وحل علينا وقت صلاتها قريباً من عابدين ، فدخلنا مسجداً نصلي ، فإذا بنا ونحن خروج ننتقل أحذيتنا على باب المسجد ، نرى عربية تقف أمامه وقد صعد إليها رجل كبير ضخّم الجثة ، عرفته حين رأيته ، فقلت لصاحبي الشيخ : أليس هذا عرابي . ؟ لقد تغير كثيراً وكأنه لم يعد يبصر . فقال صاحبي بعد صمت : ألا ترى من الخيل لنا أن نعود فلا نذهب إلى بيت عرابي ؛ فإنّي لا أستطيع أن أراه هكذا في ختام أيامه ، كسيراً مخذولاً مهبطاً ، وهو

هوق ذلك أعى ، ثم يقول رفيق : وهل تظن أنه يعرفنا بعد كل هذه السنين ، وهذه الأحداث والحن ، وهذه الغربة الطويلة . ؟ إننا نحجل أنفسنا حين نعرض عليه أو يستأذن لنا منه فلا يذكر أشخاصنا أو أسماءنا ، فهل بنا نعود ، قال محدثي : ولكنى عارضت صاحبي وشجعتة وقلت له : لقد جئنا إلى القاهرة لنزور عرابي ، ولا بد إن شاء الله أن نزوره . وقصدنا إلى بيته في شارع خيرت ، بعد صلاة الجمعة بساعات .

نما قدمنا منزل عرابي استقبلنا على بابه بعض الخدم ، واستقبلنا واحد من أبنائه وهو لا يعرفنا . فلما عرفناه بأنفسنا قال : إن الباشا ليس في البيت . وترك لنا أن نجلس أمام البيت على « دكة » البواب حتى يعود فيستأذن لنا عليه الخدم ، فجلسنا وقد نظر إلى صاحبي كأنما يذكرني بما قال ونحن نترك المسجد حين رأينا عرابياً وهمّ بنا صاحبي أن نعود .

وقفنا على هذه الحال إلى حائط البيت فترة ما بين الحيرة والتردد ، وبعد لحظات انتهت إلى الباب ووقفت عربة عرابي ونزل منها يتمهل ، ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين ، وقد هممت بالتقدم للسلام عليه ، ناداني : ألسنت أنت « عريفي » الشيخ على نجم . ؟

وسألني وصاحبي عن خبرنا ، فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا

خدمه وابنه . وكنا دخلنا معه وأجلسنا إلى جواره . فلما سمع قصصنا تغير لون وجهه وظهر عليه الغضب ، ثم وقف ووقفنا . وعاد بعد ذلك إلى أول الحديقة فنادى ابنه الذى استقبلنا وطالب معه جميع من فى البيت من إخوته . ثم وقف ووقفوا جميعاً أمامه صفّاً واحداً ، فحدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه على الصوت ظاهر الحدة والغضب ، وهم وقوف أمامه صفّاً ورؤوسهم على صدورهم ، مشتبكة أيديهم كأنهم فى صلاة . ثم انتهى حديثه معهم باللغة العربية ، وقد فهمنا عند ذلك سرّ غضبه وما حدث به أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية . وكان ختام حديثه لأبنائه — كأنى أسمعهم الآن — يقول مشيراً إلى وإلى صاحبي : هذا زميلى فى الكتّاب ، وهذا عريقى جلست إليه يسمع منى القرآن ، فهو معلمى . وأنا فلاح ابن فلاح تحدّرت من أصلاب الفلاحين فأنا بهم خور ، خور ، بآنى نشأت ولعبت فى الماء والطين معهم . وأنا عرابى باشا ، ولكنى قبل ذلك « فلاح » من قرية « هرية » . وهؤلاء الفلاحون هم أهلى وعشيرتى ومنبئى وشرفى ، ومنهم دى ، فمن جاء منهم لا يجلس بالباب .

ثم أسر أولاده فانصرفوا وهم سكوت مطرقون . ودخلنا فجلسنا وجلس معنا ساعات ، يحدثنا عن صباها وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتّاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا لنبيت ، فشكرنا واعتذرنا .

— ٣٧ —

ولما انصرفنا لم يتركنا عرابي حتى خرج معنا خطوات من حجرتي ،
واستحلفنا أن نعود إليه وأن يرانا .

قال محدثي المعمر الشيخ : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا
نحبه كما كان يحبنا .

قات : يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابيًّا : البطل الفلاح .

شائِر من القرن الثالث

فى شهر شوال من سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج فى فرات البصرة رجل زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب ؛ وجمع الزنج^(١) الذين كانوا يسكنون السباخ وعبر دجلة فنزل الدينارى ، وكان قد شخّص من سامراً سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين ، فادّعى بها أنه على بن عبد الله ابن محمد بن الفضل بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب ، ودعا الناس بهجّر إلى طاعته ، فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم . وكان أهل البحرين قد أحلّوه بمحل نبي ، وجبى الخراج ونفّذ فيهم حكمه ، وقتلوا أصحاب السلطان بسببه .

ذلك هو مبدأ ظهور صاحب الزنج كما رواه ابن الأثير فى تاريخه الكامل .

« وما زال يدعو غلمان أهل البصرة و يهبطون إليه للخلاص من الرق »

(١) الزنج : بفتح الزاى « ونكسر » جيل من السودان ، وهم الزنوج .
[القاموس والمصباح] .

والتمب ، فاجتمع عنده منهم خلق كثير فخطبهم ووعدهم أن يقودهم
ويملكهم الأموال . وحالف لهم الأيمان ألا يغدر بهم ولا يخذلهم .

فهذا بدء ظهور دعوته في البصرة وارتفاع صوته وصوتها .

ولعل هذه الثورة التي نحاول أن نلخص خبرها وخبر صاحبها في
هذا الفصل ، هي أول ثورة في الإسلام ، قامت على أساس اجتماعي ،
ويسمونها المؤرخون العرب « فتنة الزنج » .

هي أول ثورة أشعلها في قلوب الناس ، بل المستضعفين منهم ،
شعورهم بالظلم والهوان ، وقسوة المجتمع عليهم قسوة شاذة .

وقد بدأت هذه الثورة - كما تبدأ جميع الثورات - بإثارة الفكر ،
والضمير ، والمنفعة : إذ بدأ صاحب دعوتها يحرك في نفوس أبأس الطبقات
وأحققرهم شأنًا في مجتمع ذلك العصر ، إحساسهم بالمذلة والفقر والصغار ،
الذي وضعهم فيه مجتمعاتهم ، ويدرك في نفوسهم شعور السخط عليه ،
وعلى الظلم ، وعلى سادتهم - بل أسيادهم ، فقد كانوا عبيدًا - ويفيض
في الوقت نفسه ، قلوبهم بالأمل في حياة أفضل وأكرم ، ينالون فيها
الحرية ، والمال ، والعمل .

جمع صاحب هذه الثورة الزنوج - كما يقول الطبري - « وقام فيهم

خطيبا ووعدهم أن يقودهم ، ويرأسهم ، ويمتلكهم الأموال » .

فهذا التأثير يريد أن يجعل من هؤلاء العبيد السود الذين يكسحون الأقدار ويحملونها ويعملون فيها طول يومهم ، ومن العبيد الآخرين الذين كان يشتريهم الناس ويبيعونهم ، يريد أن يجعل من هؤلاء وهؤلاء أحراراً يضع نفسه قائداً لهم ورئيساً عليهم ، وأن يمتلكهم الأموال بعد أن كانوا سلعة تملك وتهدى وتباع .

وقد قامت ، غير هذه الثورة وقبلها ، ثورات الخوارج ، والقرامطة ، والزط ، وبابك الخرمي وغيرها ، ولكن هذه الثورات لم يكن لها أساس اجتماعي ، بل كانت دوافعها عنصرية ، أو سياسية ، أو شخصية ، أو هذه كلها مجتمعة . أما ثورتنا هذه ، ثورة صاحب الزنج ، فقد كانت شيئاً آخر فريداً .

كان الزوج الإفريقيون يقيمون في مكان قريب من البصرة ، يسمونه « السَّبَّاح » ، وكان هذا الاسم مشتقاً من العمل الذي يقوم به هؤلاء الزوج ، وهو كسح السباح والفضلات التي تتخلف في بيوت أهل البصرة ومراقبتهم .

وفي سنة ٢٥٥ هـ ظهر بين هؤلاء العبيد السود - كما رأينا - رجل يرقى

ينسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب ، وهو ، مع هذا النسب الرفيع ، يلقاها ويتودد إليهم ، ويشفق بهم ، ويثير في نفوسهم العزة ، والسخط على حالهم ، ويدبر لهم ومهم الأمر ليخرجهم من الرق إلى الحرية ، ومن الجوع والتعب والخوف ، إلى الشعب والراحة والأمن والطمأنينة .

وبدأ هذا الداعية دعوته سراً ، ويقول واحد من أوائل الذين اتبعوه ، اسمه ربحان : « كنت موثقاً بفلمان مولاي - أي عبيده - أنقل لهم الدقيق ، فأخذني أصحابه فساروا بي إليه فسألني عن الموضع الذي جئت منه ، فأخبرته . وسألني عن أخبار البصرة وعن الفلمان السود وما يجري لهم ، فأعلمته » وبعد ذلك يقول إنه دعاه إلى دعوته فقبل ، ثم طلب إليه أن يحتال على من يستطيع من العبيد حتى يجيء بهم إليه ، ووعدته بأن يجعله قائداً على من يأتي بهم . ثم استخلفه ألا يخبر أحداً بمكانه وخلي سبيله .

وبدأت هذه الدعوة تثمر ثمرتها بين أهل السباح من العبيد فيقبلون على صاحبها ، فيتلقاهم ويحدثهم ، ويعددهم بأنه سيجعلهم قواداً في جيشه ، بل جيشهم ، ويملكهم الأموال ويقسم لهم أنه لن يتركهم ، ولن يغدر بهم . ولن يخذلهم « ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم » .

وبدأ صاحب الزنج يشعر بقوة ، وكثرة أتباعه من العبيد ، وإخلاصهم ، فاخذ يتهيأ لإعلان دعوته ، فلما أعلنها ، في عيد الفطر من سنة ٢٥٥ هـ كانت إعصاراً مدمراً ، بقي يقض مضجع الخلافة العباسية ، وينقص من أطرافها أربع عشرة سنة وأربعة أشهر ، وعشرة أيام .

استولى صاحب الزنج ، في سنتين اثنتين هما سنة ٢٥٦ - ٢٥٧ ، على مدن : الأبلّة وعبادان ، والأهواز ، والبصرة . ثم على واسط والبطيحة « بين واسط والبصرة » والنعمانية « بين واسط وبغداد على نهر دجلة » وحارب ، من قواد الخلافة العباسية وولائها ، سعيداً الحاجب ، وابن المدبر ومسيراً المولد ، وموسى ابن بغا ، ومنصور بن جعفر بن دينار - وقد قتل في حربهم - وأبا الساج ، وأغرتمش التركي ، والموفق طلحة - أخا الخليفة المنعم - والعباس ، ابن الموفق . وقتل بيده ويد الثائرين من أتباعه ، على بن يزيد العلوي ، صاحب الكوفة ، وشاركت في حرب هذه الثورة جيوش من الترك والعرب ، والأكراد ، سبّرتها دولة الخلافة فكانت تلاقى من جيوش الثائرين كل هول وضراوة وقسوة .

وقد بقي الموفق ، أخو الخليفة المعتمد ، يحارب الزنج وصاحبهم ثلاث سنين . هزم فيها أكثر من مرة . وهم بالهرب أمام طوفانهم .

وفي هذه الحروب الطويلة الطاحنة . قتل من الناس خلق كثير ..
 قدره بعض المؤرخين بـمليون ونصف ، وقدره آخرون بـمليونين ونصف ..
 وقتل في هذه الثورة ، في يوم واحد ، كما روى المؤرخون ، ثلاثمائة ألف ،
 وكان ممن قتل فيها أبو الفضل الرياشي النحوي المشهور ، وزيد بن أخزم ،
 الحافظ الحدث .

ولما ظهر أمر الثورة ، اشترك فيها غير الزنوج من الناس . فنحن نجد
 من حوادث سنة ٣٦٦ أن العرب أغاروا على ركب الحجاج وذهبوا بما
 نهبوه إلى صاحب الزنج .

وقد ذكر المؤرخون شيئاً ، قد يكون صادقاً أو غير صادق ، عن
 صاحب الزنج وأصله ، وذكروا خروجه على الخلافة ووقائعه وحروبه مع
 ولاتها وقوادها ، ومن قاتله منهم ، ومن قتل . ولكننا لا نكاد نجد
 شيئاً عن جوهر دعوته وحقيقتها وأهدافها .

لا نكاد نجد سوى هذه القصة التي تلخصها أول هذا الفصل عن
 حديثه مع ربحان ، وسوى هذه القصة التي رواها ابن الأثير ، والتي تدل
 على أن صاحب هذه الثورة كان مؤمناً بدعوته أعق الإيمان مؤثراً لها على
 كل عرض من عروض الحياة ، مؤمناً بحق هؤلاء العبيد في أن تكون .

لهم الحرية ، والكرامة ، وأن يشعروهم لذّة العزة والسيادة ، حتى على أسيادهم السابقين .

خلاصة هذه القصة لابن الأثير ، أن الأغنياء لما أحسّوا خطر دعوتهم عليهم ، وأثرها في نفوس عبيدهم وخذّتهم . وخروج الرقيق من بيوتهم وقصورهم ومزارعهم إليه ، ذهبوا يبذلون له عن كل عبد خمسة دنانير ، ليعيد إلى كل منهم عبده . فأراد أن يذيق هؤلاء الأسياد بأس ما صنعوا بعبيدهم . فبطح الأسياد على الأرض . وأمر جميع من عنده من العبيد أن يضربوهم بالسياط ... ! لكل سيد منهم خمسمائة سوط - أو « شطبة » كما يقول الطبري - بيد عبده ... ! ثم أطلق سراح السادة ... !

أما صاحب هذه الثورة فقد روى المؤرخون ، كما ذكرنا ، أنه قدم من سامرا إلى البحرين سنة ٢٤٩ هـ فادّعى فيها نسبه العلوي الشريف ، وينسكروا المؤرخون عليه هذا النسب ، ولكن « بروكلان » لا يستبعده ، وكان اسمه عليا بن محمد بن أحمد . ثم يقولون إنه بدأ دعوته في مدينة هجر فاتبعه كثير من أهلها ، ومن أهل البحرين وغالوا فيه ، وفتنوا به فتونا شديداً حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا . وقدّموا له أموال الخراج . فلما جاء إلى البصرة كان منه ومن أهل السباخ فيها ما أوجزنا خبره في هذا الحديث .

ومن الطبيعي أن يفتن الناس بهذا النأثر فتوناً شديداً ، وأن يستولى على عواطفهم وقلوبهم « حتى أوشكوا أن يجعلوه نبيا » ، فقد ظهر هذا النأثر بنسب شريف يرفعه إلى أقدس اسم عند المسلمين . نسب يصله بعلى ابن أبى طالب ، وفاطمة بنت النبی عليه السلام .

وكان آل على وأولادهم - لفقرهم وحاجتهم - يتزوجون أو يتسرون الإماء السود لرخص مهورهم وأثمانهم . فكان كثيرون منهم - من العلويين - يزرع لونهم وسحنتهم إلى السواد وسحن أمهاتهم الزنجيات ، وكان ثأرنا ، على بن أحمد ، يميل لونه إلى السواد ، فهو أقرب لونا وسحنة إلى هؤلاء العبيد الذين قام لتحريرهم . كما كان ثأرنا سقاً قوى الحجة خلاب المنطق . لقيه جمع من الحجاج ، بعد استيلائه على البصرة وما جاورها ، فظل يتحدثهم عن دعوته وثورته .

وروى الطبرى عن هؤلاء الحجاج إجمال هذا الحديث فقال : « فلما أتيناها - أى التقي الحجاج بعلى بن أحمد - أمر فبسط له على نشز من الأرض ، وقعد ، وكان فى السفن قوم حجاج أرادوا سلوك طريق البصرة ، فناظرهم بقية يومه إلى وقت غروب الشمس . فجعلوا يصدقونه فى جميع قوله وقالوا : [لو كان معنا فضل نفقة لأقمنا معك] فردهم إلى سفنهم » .

ومن هذا الوصف وهذا الحديث ، نعرف أن علي بن أحمد هذا ، حتى بعد استيلائه على البصرة وما يحيط بها من الأقاليم ، لم يعمد إلى الترف والاستعلاء ، بل ألزم البساطة والقصد والتواضع . فكان يحدث القوم وهو جالس على مرتفع من الأرض فرش عليه بساط أو حصير . ومن هنا كانت الملاممة قائمة قوية بين دعوته لتحرير العبيد والمستضعفين ، وبين أعماله ومظهره وتصرفاته . ومن هذا الحديث نعرف أنه كان يحدث القوم عن دعوته ليؤيدوها ويدخلوا فيها وينصروها . وقد تأثر الحجاج بمنطقه وخلابته حتى أصغوا إليه أكثر يومهم إلى غروب الشمس وأنهم أظهروا اقتناعهم بهذه الدعوة وهذا المنطق حتى قالوا : لو أن معنا مالا نستغنى عنه لبذلناه لك . وكان عليّ يستطيع ، وهو صاحب الحول والقوة على البصرة وما جاورها ، أن يأخذهم بالقهر والعنف . وأن يفتش سفنهم وأحلامهم وثيابهم ، وأن يحتجزهم ويضمهم إليه بالقوة إذا شاء . ولكنه آثر الحكمة والكياسة فصدقهم في دعوائهم العجز والحاجة ، وتركهم أحراراً يسبرون إلى حيث يريدون ، ولا شك في أنهم كانوا بعد ذلك دعاة له معجبين بشخصه وإخلاصه ودعوته .

وهناك قصة أخرى رواها المؤرخون ، تدل على سماحته وكياسته وهي ،

— ٤٧ —

في نفس الوقت ، تدل على إخلاصه لفكرته وعمق إيمانه بالدعوة التي
ثار من أجلها .

تقول القصة : إن علي بن أحمد جمع الأسياد الذين يملكون العبيد
وهذّبهم بالموت جزاء ما يلقي منهم عبيدهم من سوء المعاملة والقسوة ،
فقال : « قد أردت ضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان ،
الذين استضعفتهم وقهرتموهم وفعالتم بهم ما حرّم الله عليكم أن تفعلوه بهم .
وجعالتهم عليهم ما لا يطيقون ، فكلمني أصحابي فيكم فأريت إطلاقكم » .

وكان علىّ يستطيع أن يقتل هؤلاء « الأسياد » ولكنه كان يريد
التقويم والإرهاب والتخويف .

وهذا الشريف العلوي الذي يثور ويقود الثورة ويشعل الحرب
غضباً لما يلقي العبيد من القسوة والأذى . يكتب على رايته آية من
كتاب الله تدعو لأن يبيع المؤمن نفسه في سبيل الله وفي سبيل الحق ،
تلك الآية هي « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ
لَهُمُ الْجَنَّةَ » . ولعل ذلك كان أيضاً من أسباب نصرته وافتتان الناس به .

ولكنه مع كل ذلك ومع انتصاره ، كما ذكرنا ، على دولة الخلافة
سنوات عدة ، واستيلائه على رقعة فسيحة من أرضها — هزم في النهاية .

ولم تُقَمِّ بعده في العالم كله ، ثورة للعبيد أو من أجلهم ، إلا بعد ألف سنة .
ولم تخل دعوة على بن أحمد ، كما يصورها ابن الأثير ، من شعوزة .
ودجل فقد زعم لنفسه الكرامات أو المعجزات حتى قال : إن غمامة أظلمته
وخرج منها صوت يتحدث إليه . وهي نعمة تعرفها تلك العصور وما ياتلها
في الجمالة ، يقول على عن بدء دعوته : « إني فكرت في الموضع الذي
أقصده ، حيث نبتَ بى البلاد ، فأظلمتني غمامة وخطبت منها فقيل لى :
اقصد البصرة » . وهو في ذلك يزعم لنفسه منزلة النبوة ويتمنى أهل
البصرة .

وهنا يجب أن نلاحظ أن ابن الأثير والطبرى وغيرهما من المؤرخين
يكتبون - وهم يسجلون سيرة على بن أحمد - عن ثائر خارج على خليفة
النبي وإمام المسلمين ، وأنه قد هزم آخر الأمر .

والناس من يلقى خيراً قائلون له ما يشتهى ، ولأتم الخطىء الهبل .
وقد ملأ صاحب الزنج هذا قلوب أنصاره وأتباعه بالسخط والثورة
والحقد ، وزادت الحرب التي قامت بينهم وبين جند الخليفة ما في نفسه
ونفوسهم من هذا السخط والحقد . فلم تخلُ ثورتهم وحرهم من العنف
والقسوة الفاجرة .

ففي شوال من سنة سبع وخمسين ومائتين ، اجتمع الأعراب من البحر ين ، بإمرة محمد بن يزيد الدارمي ، وتجمع عليهم كثيرون من مناهم أتباع صاحب الزنج ، وأحاطوا بالبصرة من أطرافها فدخلوها وقت صلاة الجمعة في اليوم السابع عشر من شوال . وأباح صاحب الزنج لنوجه البصرة يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت يفعلون بها وبأهلها ما يشاؤون . . . ! حتى حرق المسجد ، وأحرقت البصرة في عدة مواضع ، واتسع الحريق من الجبل إلى الجبل .

وقدّمت الخدعة إلى أهل البصرة بأن من دخل دار فلان فهو آمن ؛ فجاء أهل البصرة قاطبة إلى دار الأمان ثم غدر بهم وقتلوا ، فسكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة ، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلّم إلا الفادر منهم . وعظم الخطب بالقتل والتحريق والنهب ؛ فن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، ومن كان فقيراً قتلوه لوقتته . وبقوا كذلك عدة أيام .

هكذا يقول المؤرخون .

ابن الرومي بصور صريع البصرة :

وكان يعيش في هذه الفترة من الزمن ويشهد هذه الأحداث المثيرة ،

(م ٤ — بطولات عربية)

شاعر من أعظم شعراء العربية وأبرعهم وأصدقهم إحساساً، هو ابن الرومي ، وقد وصف دخول الزنج مدينة البصرة — وقت صلاة الجمعة — في قصيدة من عيون الشعر وعجائبه . وضوح بيان ، وقوة تصوير ، وإبداع خيال ، وصدق عاطفة ، وهي من بدائع الشعر العربي كله .

وليس موضوع هذا الكتاب الأدب والشعر ، ولكنني أبيع لنفسي أن أسجل قطعة كبيرة من قصيدة ابن الرومي هذه . لأننا نستدل منها على شيء كثير في ثورة العبيد هذه وعما بلغت من العنف والشدّة . ونذكر ، قبل أن نتلو قصيدة ابن الرومي ، أن شأنه في موقفه من هذه الثورة ، شأن الطبري وابن الأثير ، وغيرها ممن أُرّخ للثورة وصاحبها . وقد كان هؤلاء جميعاً يمثلون وجهة النظر « الرسمية » وينافحون عن الخليفة ، وعن المجتمع الذي يعيشون فيه :

بدأ ابن الرومي قصيدته بهذه البداية الجازعة :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السّجام
أى نوم من بعد ما حلّ بالبصر	رة ما حل من هنات عظام ؟
أى نوم من بعد ما انتهك الزند	يج ، جهاراً ، محارم الإسلام ؟

إن هذا من الأمور لأمر كاد ألا يقوم في الأوهام

ومن هذه البداية يشعر القارئ بما يريد ابن الرومي أن يوحى إليه من
الجزع والتهويل والتقديم لأمر عظيم « انتهكت به محارم الإسلام » حتى
أن هذا الأمر العظيم يكاد ألا تصدقه الأوهام .

ثم ينتقل بعد هذا الإيجاء وإثارة الغضب والسخط في قلب سامعه
وقارنه إلى وصف ما يريد فيقول مجملًا في بيت واحد :

أقدم الخائن اللعين عليها — وعلى الله — أيما إقدام

ثم يعود بعد هذا الإجمال البارع إلى ما في نفسه من الحزن واللهفة على
ما أقدم صاحب الزنج من أمر فيقول هذه الأبيات :

لهف نفسي عليك أيتها البص	رة لهفًا كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخي	رات لهفًا يعرضني لمهـامى
لهف نفسي عليك يا قبة الإس	لام لهفًا يطول منه غرامى
لهف نفسي عليك يا فرضة البلد	دان لهفًا يبقى على الأعوام
لهف نفسي لجمعك المتفانى	لهف نفسي لعزك المستضام

بهذه اللهفات المتواليات قد هيأ ابن الرومي قارئه لأن يقرأ وصفه القادم

لما حلَّ بالبصرة ، وقد امتلأ قلبه بالغیظ والغضب ، الذى أوحاه إلینا فى مطلع قصیدته . ثم یقول :

بینما أهلها بأحسن حالٍ إذ رماهم عبیدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الیاء ل إذا راح مدلیهم الظلام

أىَّ هولٍ رأوا به أى هول حقّ منه یسبب رأسُ الغلام
إذ رموهم بنارهم من یتیم وشمال ، وخلفهم ، وأمام
كم أغصوا من شاربٍ بشراب كم أغصوا من طاعمٍ بطعام
كم ضنین بنفسه رام منجى فتلقوا جبینہ بالحسام
كم أیخ قد رأى أخاه صریعاً ترّب الخلد بین صرعى كرام
كم أب قد رأى عزیز بنیه وهو یعلی بصارمٍ صمام
كم مفدى فی أهله أسلموه حین لم یحمه ، هنالك ، حامی
كم رضيع ، هناك ، قد فطموه بشما السیف ، قبل حین الفطام
كم فتاة - بخاتم الله - بكرٍ فضحوها جهرأ بغير اكتنام
كم فتاة مصونة قد سبوها بارزاً وجہها بغير لثام
من رآهن فی المساق سبايا دامیات الوجوه للآقدام
من رآهن فی المقاسم - وسط الزنج - یقسمن بینهم بالسهم
من رآهن یتخذن إماءً بعد ملك الإماء والخدام

هذه القطعة من قصيدة ابن الرومي قد رأى فيها القاريء كيف دخل
الزنج البصرة وأهلها على أحسن حال ، فكان جيشهم كأنه قطع الليل .
وكيف أخذتهم نار الزنج من خلفهم وأمامهم ومن يمين وشمال . ثم هو يقدم لنا
هذه الصورة الشعرية الرائعة كأنها الرسوم أو التماثيل في قوة تصويرها .
فهذا شارب أو طاعم حين هجم عليه الزنج غصّ بشرا به وطعامه ، وهذا
هارب ضنين بنفسه قد جبهته سيفهم وتلقّت جبينه ، وهذا أخ يرى أخاه
صريعاً قد غرّ التراب خده بين كرام غيره ، معقّرة خدودهم . ثم يقدم
إليها صورة من تلكم الفتيات الأبنكار على خاتم الله قد فضحهم الزنج
وفضّوهنّ جبهة بغير اكتتام . ثم ساقوهن إلى السّبي يفرقونهن بينهم
ويقتسمونهن مماليك وكنّ من قبل يملكن الإماء والخدام .

ثم يعود ، بعد إبراز هذه الصورة القوية من السفك والقتل والعدوان ،
إلى شعوره النفسى يوحى به فيقول :

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أضرم القلب أيما إضرار
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا أوجعتني مرارة الإرغام

ثم يرجع إلى ذكر صور مجملّة بعض الإجمال من بيع السبايا وتخريب
البيوت البارة كانت مأوى الضعاف والأيتام . ودخول القصور العامرة

كانت من قبل صعبة المرام . ثم يقدم لنا بعد ذلك صورة كلها حياة وكلها حركة وكلها دقة ووضوح ، وهي قوية غاية القوة عن مدينة البصرة وكيف كان زحام الخلق فيها وعمار أسواقها ، وتلك الفلك التي تسير منها وإليها بالتجارة والناس ، وتلك القصور ذوات الإحكام من بنيانها ، وكيف استحال هذا كله — بفئة الزنج — إلى خراب وصمت لا يرى فيه غير أيدٍ وأرجل مقطوعة ورؤوس مهشمة ووجوه دامية بين الخرائب تسفى عليها الريح :

عرجاً صاحبي بالبصرة الزَّهراء تعريج مدنف ذى سقام
فأسألاها — ولا جواب لديها لسؤال — ومن لها بكلام ... ؟
أين ضواء ذلك الخلق فيها ؟ أين ذاك البنيان ذو الإحكام ؟
بدلت تلك القصور تلالاً من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق^(١) والحريق عليها فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من خلولها ، فهي قفر لا ترى العين بين تلك الآكام
غير أيدٍ وأرجل بائنات نبذت ، بينهن أفلاق هام

(١) في القاموس [بثق النهر بثقاً وبثقاً وتبثقاً كسر شطه يثبق الماء] .
ولعل صاحب الزنج كان قد كسر « شط العرب » الذي تقع عليه البصرة ، فتصدق
صورة ابن الرومي عن حصارها بالماء والنار .

ووجوهٍ قد رمتها دماء بأبي تلـكم الوجوه الدواى
وضُتْ بالهوان والذل قسرا بعد طول التبجيل والإعظام
فتراها تَسْفى الرياحُ عليها جارياتٍ بهَيَوقٍ وقَتام
خاشعات كَأَها باكيات باديات الثغور، لا لا بتسام...!

ولا شك في أن القارئ يشعر بتلك القدرة الفائقة التي صور بها ابن الرومي ذلك المشهد، مشهد خرائب البصرة وقصورها التي أضحت تلالا، ومشهد تلك الأيدي والأرجل مبعثرة فيها قد نهزت يدهن أفلاق هام، ومشهد تلك الهام ملقاة خاشعة باكية قد بدا منها الثغر وبرزت النواجز ولكن لا لتبتسم...!

ثم ينتقل ابن الرومي بعد ذلك إلى ذكر مسجد البصرة وما حل به فيقول مخاطباً صاحبيه أيضاً :

بل أَلَمَّا بساحقَ المسجد الجا مع إنْ كُنْما ذوى المِسام
فأسألاه - ولا جواب لديه - أين عبّاده الطوالُ القيام... ؟
أين عمّاره الألى عمّروه دهرهم في تلاوة وصيام
أين فتيانه الحسانُ وجوهاً ؟ أين أشياخه أولو الأحلام

إلى هذه الغاية يكون ابن الرومي قد أبرز تلك الصورة البارعة القوية

الصادقة عن وصف ما حلّ بالبصرة وأهلها على يد الزنج ، فهو ينتقل بعد ذلك الوصف إلى تهيج الناس وتحريضهم وإثارة نفوسهم على صاحب الزنج وزوجه حتى يثأروا منه لأنفسهم وأهليهم . وهنا تبرز الغاية التي قصد إليها ابن الرومي ، ونعتقد أنه تعمدها حين بدأ قصيدته بتلك البداية ... وقد أشرنا إلى ما تشعر به من الرغبة في التحريض والإثارة ، حين ذكر ابن الرومي « محارم الإسلام » ، وحين قال بعد ذلك بيتاً قصدنا أن نستقطه من موضعه لنذكره الآن وهو :

وتسمى - بغير حق - إماماً لا هدى الله سعيه من إمام

وقد ذكر هذا البيت بعد ذلك الذي يقول فيه إن الخائن اللعين صاحب الزنج قد أقدم عليها وعلى الله .

كل هذه الإيحاءات بالهياج والثأر يجعلها ابن الرومي دعوة صريحة في هذه القطعة التي ينتقل إليها بعد ذكر المسجد الجامع وعباده وفتيانهِ وشيوخه أولى الأحلام .

أى خطبٍ وأى رزءٍ جليلٍ نالنا في أولئك الأعوام
كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد وفقير في دينه عـلام
واندامى على التخلف عنهم ! وقليلٌ عنهم غناء ندامى

واحيائي منهم - إذا ما التقينا وهم - عند حاكم الحكام
 أى عذر لنا؟ وأى جواب؟ حين ندعى على رءوس الأنام:
 يا عبادى! أما غضبتُم لوجهى ذى الجلال العظيم والإكرام
 أخذتُم إخوانكم وقعدتُم عنهم - ويحكم - قعود اللثام؟
 كيف لم تعطفوا على أخوات فى جبال العبيد من آل حام؟^(١)
 لم تغاروا لِعِترتى ، فتركتُم حرُماتى لمن أحل حرامى
 إن من لم يغر على حرُماتى غير كفاء لقاصرات الخيام
 كيف ترضى الحوراء بالمرء بعلاً وهو - من دون حرمة - لا يحامى

ثم يقدم لنا ابن الرومى بعد هذا التحريض القوى هذه الصورة
 البارعة عن خصومة تحيّل أنها واقعة بينه وبين النبی عليه السلام عن هؤلاء
 الشيوخ والفتيان وكيف لم يثار لهم :

واحيائي من النبی إذا ما لامتني فيهم أشد الملام !
 وانقطاعي إذا هم خصموني وتولى النبی عنهم خصامى !
 مثلوا قوله لكم - أيها الفاسقون - س - إذا لامتكم مع اللوام
 « أمتي ! أين كنتم إذ دعيتكم » حرّة من كرائم الأقوام ... ؟

(١) تبدو في هذا البيت ، وفي بعض الآيات السابقة واللاحقة أيضاً ، عنصرية الثورة . « وأبناء حام » هم العبيد . وابن الرومى يدافع عن العنصر الآخر .

صَرَخَتْ : يا محمداه ... ! فهلاً قام فيها رعاةٌ حَقَّقَ مقامى ... !
لم أجبتها ، إذ كنت ميّتا ، فلو لا كان حىَّ أجابها عن عظامى ! »

وأريد هنا أن أشير إلى براءة ابن الرومى إذ انتقل من خطاب نفسه
في الأبيات الأولى إلى خطاب من يحرّضهم حين بدأ يصف خصومة النّبى .
عن قتلى الزنج فقال : « مثلوا قوله لكم أيها الناس » .

ثم يندرج ابن الرومى بعد هذه الإثارة وإهاجة النفوس للدعوة الصريحة
إلى الثأر من صاحب الزنج في هذه القطعة التى هى ختام قصيدته ، والتى
نكتفى منها بهذه الأبيات :

وَنَقَلًا إِلَى الْعَبِيدِ الطَّعَامَ	إِنْفِرُوا - أَيُّهَا الْكِرَامُ - خِفَافًا
سَوْءَةً سَوْءَةً لِنَوْمِ النَّيَامِ ،	أَبْرَمُوا أَمْرَهُمْ وَأَنْتُمْ نِيَامُ ،
وَرَجْوَكُمْ لِنُوبَةِ الْأَيَّامِ	صَدِّقُوا الظَّنَّ إِخْوَةً أَمْلُوكُمْ
مِثْلَ رَدِّ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَامِ	أَدْرِكُوا ثَأْرَهُمْ فَذَاكَ لَدَيْهِمْ
فَأَقْرِتُوا عَيُونَهُمْ بَانَتْقَامِ	لَمْ تَقْرِتُوا الْعَيُونَ مِنْهُمْ بِنَصْرِ
ك - حِفَاطًا وَرَعِيَّةً لِلذَّمَامِ	أَنْفَذُوا سَبْيَهُمْ - وَقُلْ لَهُمْ ذَا
س ، لَأَنَّ الْأَدْيَانَ كَالْأَرْحَامِ	عَارُهُمْ لَازِمٌ لَكُمْ ، أَيُّهَا النَّا
د فَانْتُمْ فِي غَيْرِ دَارِ مَقَامِ	لَا تُطِيلُوا الْمَقَامَ عَنْ جَنَّةِ الْخَلَا

فاشتروا الباقياتِ بالعرضِ الأدنى ، وبيعوا انقطاعه بالدوام

هكذا ينتهي ابن الرومي من قصيدته في رثاء البصرة وفيما أصابها
وأهلها من صاحب الزنج وفتنة الزنج وتحريض الناس على الثأر منه ومنهم .
وأعتقد أن القارئ يجد أني لم أكن مغاليا حين قلت عن هذه القصيدة .
من شعر ابن الرومي إنها قصيدة عجيبة من غرائب الشعر العربي ، وضوح
بيان ، وقوة تصوير ، وإعجاب خيال ، وصدق عاطفة ، وأنها من بدائع
الشعر العربي كله .

وأزيد على ذلك أن ابن الرومي كان في تحريضه الناس وتهيبه
لهم ، ما كرا خبيثا وقويا عارما شديدا التأثير ، يكاد شعره في ذلك يدفعنا
نحن الآن - بعد أحد عشر قرنا - إلى الثورة والهماج .

بطل شَهِيدٌ مَجْهُولٌ

قصة مؤامرة مخجلة ، دنيئة ، ذهب ضحيتها بطل شجاع من أبناء وطننا الذي كافح وجاهد وتعذب وشقى . أقدم على هذه المؤامرة ونسج خيوطها وقام على تنفيذها « جنرال » إنجليزي له في تاريخ الاستعمار البريطاني صفحات وصفحات . وله في تاريخ وطننا العربي ذكرٌ ومقام ، لما قام به في وطننا هذا وفي أفريقيا ، من خدمات للنفوذ البريطاني ، كان يتقاضى عنها - عن خدماته هذه - للاستعمار الإنجليزي - أموالاً سخية من أموال وطننا الشقيّ هذا .

وفي قصة هذه المؤامرة ، كما سنرى ، أكثر من عبرة .

* * *

في سنة ١٨٧٤ قديم إلى مصر البرنس أوف ويلز ، ولّى عهد إنجلترا ، في طريقه إلى الهند ، أمن درّة « كانت » في تاج الامبراطورية البريطانية يوم ذاك .

وذهب قنصل إنجلترا العام ، قبل مرور الزائر بعشرين يوماً ، فقابل الخديوى إسماعيل وأبلغه نبأ القدوم - فكتب إسماعيل « إرادة » سنية

إلى ناظر الخارجية ذى الفقار باشا يبلغه أن « حضرة البرنس ولى عهد صاحبة الحشمة ملكة إنجلترا سيحضر إلى جنابنا بعد عشرين يوما » ثم يأمر الخديوى بانتخاب « زورق بحرى بأربعة وعشرين مقدافا من القوارب الملكية المذهبة ، وإعادة تذهيبه وفرشه ، وإعداد العمال وتمريضهم كل يوم على استعمال المقاذيف للذهاب للسقيفة والعودة منها ، والتقرّب إلى الساحل بكل مهارة » . ويأمر بأن تطلق المدافع إحدى وعشرين قذيفة في جميع الطواحي الواقعة على ساحل الإسكندرية ، من المكس إلى رأس التين ، عند دخول ولى عهد صاحبة الحشمة إلى مياه المدينة . ويأمر بإعداد القصور الملكية وتجهيزها « بأطعم » المائدة الفاخرة . والعربات الضخمة المذهبة لركوب سموه إليها . ويذكر أسماء من اختارهم لشرف استقباله « لابسين الحلال الرسمية برفقة القنصل جنرال » الإنجليزي .

وقدم البرنس أوف ويلز في موعده . وقابله الخديوى إسماعيل . وجرى بينهما حديث ذكر فيه ولى عهد إنجلترا اسم الكولونيل « غوردون » وأثنى عليه ثناء عظيما ، وأشار على إسماعيل باختياره حكمدارا لمديرية خط الاستواء ، في مكان السير صمويل بيكر باشا . وبادر إسماعيل بتلبية هذه الإشارة . فأصدر أمرا بتعيين الكولونيل غوردون حكمدارا لمديرية خط الاستواء . في ١٩ من فبراير سنة ١٨٧٤ .

وفدِم غوردون الإنجليزى من إنجلترا ليحكم ، باسم مصر المستقلّة
إذاك ، إقليميا مصر يا هو مديرية خط الاستواء . وكان جيش مصر الباسل
المكوّن من الفلاحين « أصحاب الجلابيب الزرقاء » ينتقل إذ ذاك من
نصر إلى نصر ، فى قلب أفريقيا ، ويعملو مع انتصاراته ، اسم مصر ،
وتسمو مكانتها ، وتنتشر ثقافتها وروحها . وكانت قبائل أفريقيا ، وسلاطينها
ترحب بجيش مصر ، وتبادر بالاعتراف بالسيادة المصرية عليها ، وتطالب
من مصر أن تعينها على النهوض ، وتنظيم إدارتها وتعليمها^(١) .

وكانت إحدى الوحدات العسكرية المصرية قد وصلت ، فى سنة ١٨٧٢
إلى زنجبار ، عن طريق يوغندا . فأظهر سكان البلاد ترحيبا كبيرا بها .
وقابل سلطان زنجبار القائد المصرى ، مرحبا مستبشرا . ثم طلب إليه أن
يعمل على وضع بلاده تحت الحماية المصرية ، وأن يعقد معه معاهدة بذلك .
يرفعها إلى حكومة إسماعيل لتقرّها . وعقد القائد المصرى معاهدة مع
السلطان ثم أناب عنه ضابطا مصرى فى زنجبار ، وعاد إلى خط الاستواء ،
ومعه تلك المعاهدة فقدّمها الى قائده غوردون ليرفعها إلى حكومة الخديو .

(١) كان نفوذ مصر ، بل كانت سيادتها الفعلية ، فى ذلك الوقت تمتدّ إلى
أوغندا والكونغو ، وكانت « كاتنجا » إحدى الأقاليم الغنية الهامة فى الكونغو
إفريقيا مصرىاً . ولكن دسائس الاستعمار وتهاون حكام مصر لاذ ذاك واستهتارهم
وغفلتهم أضاع ذلك كله . بعد أن بذلت فيه دماء مصرىة طاهرة زكية غالية .

ولسكن غوردون لم يرضه ذلك ، بل أسخطه وأثار حفيظته وحقدته أن ترفع راية مصر على جزيرة هامة في أفريقيا ، يريد هو أن يضمها إلى بلاد الامبراطورية التي كانت الشمس لا تغرب عنها . فأسرّ في نفسه أمرا يفسد ما أبرمه القائد المصري مع سلطان زنجبار .

بدأ غوردون بالقائد المصري فديرله مكيدة قاتلة تخلّص بها منه . أرسله في مهمة لم يرجع منها ، وزعم أنه قتل فيها . ثم أرسل إلى إسماعيل كتاباً زعم فيه أن سلطان زنجبار يقاوم نفوذ مصر ، ويعرقل جهودها . وأنه يتحدى سلطة الخديو فيأسر التجار المصريين الذين يدخلون بلاده . وأنه — أي غوردون — أرسل سرية من الجند لتعرف مصير الأسرى من هؤلاء التجار فخار بهم سلطان زنجبار وحصرهم في رقعة من بلاده . حتى أشرفوا على الهلاك . ثم اقترح غوردون على الخديو أن يرسل إليه هدية يرفعها إلى السلطان لعله يفك أسر الصندوالتجار .

وبادر إسماعيل فأرسل إلى غوردون هدية ثمينة ، ومعها كتاب منه ليرفعها إلى سلطان زنجبار ، باسم خديو مصر ، حتى يطلق سراح الأسرى من جنده ورعيته . فلما وصلت الهدية والكتاب إلى غوردون ، حجز الكتاب عنده ، كما حجز المعاهدة من قبل ، وأرسل الهدية مع سائح

إنجليزى اسمه لو كس . وأرفق بالهدية كتاباً منه يحذر فيه من وضع بلاده
تحت حماية مصر .

وقدّم السائح الإنجليزى هدية لإسماعيل إلى السلطان ، على أنها من
غوردون ، ومعها كتابه . فعدل السلطان عن مخالفة مصر .

والىكى تتمّ خدعة غوردون لإسماعيل ، احتار غوردون سرية مصرية .
وأمرها بالعودة إلى مصر ، ليؤمّم إسماعيل أنها هى السرية التى أسرها
سلطان زنجبار ، وأنقذها هو بحيلته وإخلاصه ودهائه .

وبعد أن أفسد غوردون ما فعله القائد المصرى ، أصبح لا يختار
مصرياً لأىّ عمل فى مديرية خط الاستواء . بل يكمل كل عمل فيها
لغير مصرى .

وقد أورد إسماعيل سرّ هنك باشا فى كتابه : « حقائق الأخبار عن
دول البحار » تفاصيل المعاهدة التى عقدها القائد المصرى مع سلطان زنجبار
وسجل بنودها ، وهى تجعل جزيرة زنجبار تحت الوصاية المصرية . وتجعل
لمصر الإشراف على الجيش والسياسة الخارجية لها . وتكمل إلى مصر أمور
التعليم والإصلاح فى داخل الجزيرة . وتدلل بنودها على مقدرة سياسية

فائقة . كان يتصف بها القائد المصري ، الذى لا نعرف اسمه . وإن عرفنا وطنيته ، وإخلاصه ، وتضحيته ، وعبقريته السياسية .

وهناك حقيقة يجب أن نسجلها ونحن نفصل أمر هذه المؤامرة الاستعمارية ، بل هذه المؤامرة المخجلة الدنيئة . هذه الحقيقة هى أن شعب مصر ، ممثلاً فى صحافته ، لم يكن غافلاً عن هذه الدسائس والمؤامرات . ولو أن حكاه كانوا غافلين عنها مخدوعين مستهترين .

فقد ذكر سرهنك باشا أن كتاباً نشرته جريدة « الأهرام » وطبع مطابعها تضمن قصة هذه المؤامرة . ولم يذكر على الكتاب اسم مؤلفه ولا تاريخ طبعه . ومن ثم نستطيع القول بأن هذا الكتاب صدر عن جريدة « الأهرام » . ما دام لم يذكر عليه اسم المؤلف ، فهو فى هذه الحالة من تأليف أحد أصحابها ، أو محرريها ، وصدر عن مطابعها .

ويبدو من سياق الحديث الذى فصل به سرهنك باشا ، أو فصلت به « الأهرام » حقيقة الأمر فى هذه المؤامرة ، يبدو أن المؤامرة وقعت قبل الاحتلال الإنجليزى بنحو سبع سنوات ، فإذا كانت « الأهرام » نشرتها قبل الاحتلال ، فهى بذلك أدت واجب الصحافة الأمانة فى التنبيه لما كان (م ه — بطولات عربية)

— ٦٦ —

يحيط بالوطن من مؤامرات ودسائس ، وإذا كانت نشرتها بعد الاحتلال
فقد أدت هذا الواجب ، وزادت عليه إغضاب سلطات الاحتلال وخديرو
مصر الذى استدعاها لحمايته ، وفضحت سياسة هذا الاحتلال وهو فى أوج
جبروته و بطشه ، لم تخش من ذلك شيئا .

في القرن الثامن عشر نالت مصر استقلالها ووحدت البلاد العربية

من الأغلاط التاريخية الشائعة ، بل الراسخة ، أن مصر لم تنل استقلالها إلا في أوائل القرن التاسع عشر ، على يد محمد علي . وأنه أول من استقل بحكم مصر ، في العصر الحديث ، وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية ، وحقق لها ، بذلك ، كيانا دولياً مستقلاً عن « دولة الخلافة » . كفا نجد ذلك في كتبنا التي تسجل تاريخنا ، وندرسه في مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا . وكان الملتقى ل محمد علي وأسرته هو السبب في هذا الخطأ ، بل الزيف ، في تاريخ مصر وأحداثها وكرامتها . وقد آن لهذا الزيف الباطل أن ينقشع ، وأن نعرف تاريخ وطننا الصحيح ونعرف به شبابنا خاصة . فقد حققت مصر استقلالها التام عن دولة الخلافة ، وعن كل تبعية أخرى ، قبل أن يتولى محمد علي حكمها بأكثر من أربعين سنة . وكان ذلك على يد « علي بك الكبير » . ولولا خيانة مملوكه « محمد بك أبو الذهب » لما فقدت مصر استقلالها هذا . ولم تحقق مصر استقلالها هذا فقط ، بل وحدت البلاد العربية ، وجعلت منها « وطناً عربياً » واحداً كبيراً .

وربّ قائل يقول : - إن علي بك لم يكن مصرياً ، كغيره من

الماليك . ولكنا نقول إن المالك ، في ذلك العهد ، كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ، ليس لهم وطن سوى مصر ، التي تربوا فيها أطفالاً ، ونشأوا رجالاً ، ثم ماتوا ودفنوا في ثراها كمهولاً أو شيوخاً ، أو شباباً .
وكان المصريون يرون في المالك هذا الرأي أيضاً . والجزقى ، مؤرخ القومية المصرية ، يسمي المالك على الدوام « الأمراء المصرية » ، ويрам مصريين .

فنحن ، عند ذلك ، نستطيع أن نقول إن على بك الكبير ، كان أقرب إلى مصر وأهلها من محمد علي ، الذي نعرف وطنه ، وكيف قدم مصر ، واستقر بها ، ثم استولى ، بالخدعة والمكر والغيلة ، على الحكم فيها .
على أن على بك الكبير ، كما نرى بعد قليل ، كان ، إلى حد بعيد ، خيراً من محمد علي في سيرته الخاصة ، وفي شئون الحكم ، ورعاية أمور الناس ، والحرص على خيرهم .

* * *

كان الغلام على القازدغلى - نسبة إلى زعيم سيده مصطفى كئخذدا القازدغلى - من مماليك إبراهيم كئخذدا . فلما بلغ طور الشباب بدت عليه بوادر الشجاعة ، والطموح ، وقوة الشخصية . فلما مات سيده تولى الإمارة بعده سنة ١٦٦٨ (١٧٥٤ م) . ثم تولى « شيخ البلد » أى حاكم مصر

الحقيقى فى سنة ١١٧٧ (١٧٦٣ م) ولم يصل على بك إلى مشيخة البلد ،
إلا بعد حروب ومنازعات طويلة مع خصومه ومنافسيه . دامت نحو
عشر سنوات .

ونجد فى تاريخ مصر لهذه الفترة أسماء : على بلوقبطان ، أى : « مبيد
الصوص » وعلى القازدُغلى وعلى بك الكبير . وهى كلها لشخص واحد
هو هذا الذى نتحدث عنه ^(١) وفى فترة من شبابه كان يسمى : « جنّ على »
عندما حارب مع زعيمه إبراهيم بك جماعة من الأعراب فى الحجاز وهزم
الماليك ولم يصمد للحرب منهم سوى على بك . واستطاع أن يفرق العرب
غسمى « بالجن » .

وكان جند الإنكشارية من أكبر القوى التى تعتمد عليها الدولة العثمانية
فى السيطرة على مصر ، فسكس شوكتهم ، وأكثر من شراء الماليك ، حتى
بلغ عدد مماليكه ستة آلاف ، ثم وجه همته إلى تحصين الحدود البحرية .
فجدد قلاع الإسكندرية ودمياط وحصنها ، وعزز حاميتها .
وكان على بك ، فى بدء حكمه ، يذكر ملوك مصر العظام ، من أمثال

(١) تجد ترجمة وافية لعلى بك فى الجزء الثانى من كتابنا : [دراسات فى
تاريخ الجبرتي ، مصر فى القرن الثامن عشر] . ص ٦٨ — ٧٥ . الطبعة الثانية
« مطبعة الرسالة » .

قلاوون ، وبيبرس ، ويطالع سيرهم . ويقول إنهم من بنى جنسه . وأن
العثمانيين لم يفتحوا مصر إلا بالقهر والغلبة ، التي مكنتهم منها : الخيانة .
ولولا هذه الخيانة لما استطاع سليم الأول أن يتغلب على مقاومة مصر ،
وأن يدخلها فأنحاً مدمراً .

« بعد أن أصبح على بك حاكماً على مصر ، قرّر في نفسه أن يستقل
بها عن تركيا . وأخذ يعمل على ذلك سراً ، ويضع الخطط التي تمكنه
من غايته . وفي ١١٨٢ [١٧٦٨ م] كانت الحرب قائمة بين تركيا وروسيا
فطلبت تركيا من مصر أن تمدّها بجيش مكوّن من اثني عشر ألف
جندي ، فلما شرع على بك يجمع هذا الجيش توجّست الدولة منه ومن
جيشه . وظن رجال السلطان في إسطنبول أنه بعد أن يتمّ له تأليف هذا
الجيش ، سيضعه في خدمة روسيا لتحارب به تركيا . على أن تُعينه روسيا
على الاستقلال بمصر . وأرسلت الدولة ، بناء على هذه الشكوك والهواجس ،
أمراً إلى واليها في القاهرة ليقتل على بك . ولكن هذا كان له رجال
يقظون يتجسّسون له على الدولة ، ويوافونه بأنباء الحاكّمين في إسطنبول
وأسراهم . فأبلغوه نبأ الرسالة التي أرسلت إلى والي في القاهرة بقتله .
فلما أوشك حامل الرسالة أن يصل القاهرة ، كان رجال على بك يتربّصون
به ، فلما رأوه قتلوه . وأسرعوا بالرسالة إلى سيدهم على بك . وجمع على بك

ماليهـكه ورجاله، فأعلن إليهم أن أمراً جاء من إسطنبول يطلب إلى الوالى فى القاهرة أن يقتل جميع المماليك، وأنه استطاع أن يقتنص هذا الأمر وحامله. وكان على بك خطيباً مؤثراً خلافاً. فتحدث إلى المماليك عن ماضيهم، ومجدهم، وانتصاراتهم، وحروبهم. وما كان لمصر من عزة وقوة وثروة. وأن تركيا تحقد عليهم وعلى مصر، وتريد أن تفتك بهم جميعاً. وثارت حمية المماليك واستشاط غضبهم. فأعلنوا خلع الوالى العثمانى، محمد باشا الأورفلى، وإخراجه من مصر^(١) وهذا ما كان يدبره على بك ويسعى إليه.

وبعد ذلك أعلن على بك مصر دولة مستقلة لا سلطان لأحد عليها ولا تبعية ولا ولاية. وأنه ليس للدولة العثمانية وخليفتها أى حق قبله ولا قبل مصر.

وبذلك أزال كل أثر للفتح العثمانى الذى كان من نتيجة دخول السلطان سليم مصر، وتبعيتها لتركيا: «ولاية» من الولايات التى تخضع لإسطنبول ويحكمها سلطان تركيا العثمانى. وكان إعلان هذا الاستقلال

(١) ص : ٦٩ — ٧٠ من : [دراسات فى تاريخ الجبرتى؛ مصر فى القرن

الثامن عشر]، الطبعة الثانية.

في سنة ١١٨٣ [١٧٦٩م]، وأخذ على بك يعزّز استقلال مصر هذا ، فنفخ قدوم
الولاة الأتراك من اسطنبول إلى القاهرة ، فلم يجيء منهم أحد مدى أربع سنوات ،
كان فيها حكم مصر كلها مصدره القاهرة وحدها . ومنع إرسال « الجزية »
التي كانت تدفع من مال مصر إلى تركيا منذ قررها السلطان سليم .
وضرب على بك نقوداً جديدة نقش عليها اسمه ، ولقبه سلطاناً على مصر ،
وتاريخ استقلالها ، بالتاريخ الهجري ، سنة « ١١٨٣ » ، ولا يزال بعضها باقياً
إلى اليوم ، وعقد معاهدة تجارية حرّة بين مصر وإنجلترا ، كما عقد معاهدة سياسية
مع البندقية بواسطة تاجر من رعاياها كان صديقاً له هو : كارلوروسيتي^(١) كما
عقد معاهدة دفاعية هجومية مع روسيا . ثم نظر بعد ذلك إلى مناصب الدولة ،
فأخرج منها من كان مياهم إلى تركيا ليأمن خيانتهم وسوء تدبيرهم . وأمر
الماليك الذين لا يطمئن إلى صدق ولائهم ألا يشتري منهم أحد أكثر
من مملوك ، أو مملوكين . وكان عنده منهم ستة آلاف كما رأينا .

وكانت معاهدة على بك مع روسيا الغرض منها تدعيم استقلال مصر
وتقوية جيشها . نصّت المعاهدة على أن تساعد مصر روسيا في حربها ضد

(١) بقي روسيتي هذا في مصر حتى قدوم نابليون إليها . وكان قنصلاً لألمانيا
في القاهرة ، وكتب روسيتي تاريخاً لملى بك يوجد منه الآن مخطوط في مكتبة باريس
الأهلية .

تركيا . غريمة مصر التي احتملتها واستولت عليها ثلاثة قرون . وأن يد على بك الأسطول الروسى بالجند والمؤن . فى مقابل أن ترسل إليه روسيا ضباطاً لتنظيم الجيش المصرى وتدريبه على نظم الحرب الحديثة وأساليبها ، ومهندسين لأعمال الحصار ، ونصّت المعاهدة أيضاً على تحالف دفاعى هجومى بين مصر وروسيا . وبعد إتمام هذه المعاهدة أرسل على بك « ذو الفقار بك » سفيراً ومبعوثاً خاصاً منه إلى قيصرية روسيا الإمبراطورة كاترين ، وأرسلت إليه رسائل الصداقة من روسيا ، مع ضابطين روسيين ، وقدمت إليه ثلاثة مدافع حصار هدية .

وأقدم على بك على خطوة أخرى فى سبيل تدعيم استقلال مصر ورقاھمتها عن طريق التوسع فى التجارة الخارجية مع الشرق الأقصى . فأنشأ طريقاً مباشراً للتجارة بين الهند وميناء السويس . وتبادل الرسائل فى هذا الشأن مع حاكم ولاية البنغال الإنجليزى . وكان من نتيجة ذلك تأليف شركة للتبادل التجارى مع مصر . وأرسل حاكم البنغال إلى على بك يشكره على هذا التوسع التجارى واهتمامه بهذا التبادل ، وعقد معاهدة تجارية بين مصر والبنغال .

وبذلك حوّل على بك الصادرات والمتاجر الشرقية من طريقها الطويل حول القارة الأفريقية ورأس الرجاء الصالح إلى طريق البحر الأحمر ، كما

كانت قديما ، ولكن تركيا قضت على هذا الطريق بعد ذلك ، عندما مات حاكمها المستقل على بك .

قومية عربية :

أصبحت مصر بذلك وطناً مستقلاً ذا سيادة . يعقد سلطانها المعاهدات ويتبادل الرسائل مع القياصرة والحكام .

عند ذلك نزع على بك إلى أن يجعل من البلاد العربية كلها وحدة متكاملة . وأن يقيم من أهلها « قومية » عربية متماسكة . ولم يكن أمامه سوى طريق واحد ، هو أن يحارب جيوش الدولة العثمانية في هذه البلاد كما حاربها في مصر ، وأن يقضى على نفوذها في هذه المنطقة كلها ، كما قضى عليه في مصر .

كان على بك أثناء الخصومات العنيفة التي قامت بينه وبين خصومه من المماليك أبعد من القاهرة إلى الحجاز ، وأقام فيها فترة ما . فلم يقض هذه الفترة من التفتى عبثاً ، بل جاس فيها خلال البلاد ، وتعرف شؤونها وأحوالها . وزار ، زيارة الفاحص المتأمل الخبير ، موانئها على البحر الأحمر ، وخاصة ميناء جدة . فلما تم له استقلال مصر وتدعيم مكانتها ، كوّن

جيشاً لتخليص بلاد الحجاز من النفوذ التركي . واختار مملوكه وتابعه « محمد بك أبو الذهب » قائداً لهذا الجيش . واستطاع جيش مصر بقيادة « أبو الذهب » التغلب على جيش الاحتلال التركي ، وعزل الحاكم العثماني الذي كان يحكم الحجاز باسم السلطان العثماني . ودخل أبو الذهب مكة والمدينة ، فتمتزت بذلك مكانة مصر وقوى نفوذها ، وارتفع اسم سلطانها على بك ، ونوديَ به في الحرمين الشريفين : « سلطان مصر وخاقان البحرين والبرين » . واختار أبو الذهب حاكماً مصرياً على الحجاز ، هو حسن بك ، وجعل إقامته في جده . لذلك عرف باسم حسن بك الجداوى . وخلع الشريف أحمد ، الذي حارب جيش مصر باسم الدولة العثمانية ، ونصب ابن عمه الشريف عبد الله بدلاً منه . وبذلك أشرك أبناء البلاد في حكمها وتدير شؤونها .

وكان الجيش الذي جرّده على بك لتحرير بلاد العرب مقسماً إلى قسمين ، أحدهما برى ، بقيادة حسن الجداوى ، وقد استولى على الحجاز من الداخل . وثانيهما بحرى يشمل أسطولاً كبيراً وجيشاً ، وقد استولى على السواحل والموانئ . وانتصر كلا الجيشين . وتمّ التقاءهما وتحرير بلاد الحجاز كلها من النفوذ التركي . ثم سار هذا الجيش المصرى بعد ذلك إلى اليمن فحرّرها ، وقضى على كل أثر فيها للسلطة العثمانية . وعاد حسن

الجداوى بعد هذه الفتوحات إلى القاهرة في سنة ١٧٧٠ م .

وهنا يجب أن نقول كلمة عن تكوين هذا الجيش الذى اعتمد عليه على بك الكبير في تحرير الحجاز واليمن ، تم تحرير سوريا وفلسطين فيما بعد ، وإدماجها كلها في القومية العربية .

لم يكن هذا الجيش من المالك وحدهم ، كما كان الحال قبل حكم على بك ، بل كان يضم عددا كبيرا من المصريين .

ذكر الرحالة « فوانى » ^(١) - وقد شهد جيوش مصر في سيرها إلى سوريا - أنها كانت مكونة من نحو أربعين ألفا ، منهم خمسة آلاف فارس . وصف ثيابهم وبهجة ملابسهم ورواء مظهرهم ، وكان مع هذا الجيش عشرة آلاف من المتطوعين المصريين . كما كان في هذا الجيش كثيرون من المغاربة ، والسوريين ، والدروز ، والسودانيين ، وأهل اليمن ، وغيرهم ، فتكوين الجيش نفسه كان مظهرا من مظاهر الوحدة العربية ، بل كان حقيقة من حقائقها . بل إن بعض الجند الإنكشارية ، وهم جند الدولة العثمانية وعدتها في مصر ، آمن بزعامة على بك ، وانضم لجيوش مصر ، وحارب معها لتوحيد الوطن العربى وتحليصه من السيادة التركية . وكان هؤلاء

(١) فولى : كاتب فرنسى رحالة ، زار مصر وسوريا وكتب رحلة عنهما في

سنوات ١٧٨٣ ، ١٧٨٤ ، ١٧٨٥ .

الذين انضموا للجيش على بك من الانكشارية ، يعملون تحت قيادة المماليك
« الأمراء المصرية » كما يسميهم الجبرتي .

وبهذا كان على بك « أول من جند المصريين في خدمة الجيش
من زمن طويل سابق لهذا العهد - إذ كانت الخدمة العسكرية موكولة
للماليك وحدهم - فوجد على بك أن رغبته بالاستقلال بمصر لا تقيس إلا
بإشراك المصريين أنفسهم في الدفاع عن بلادهم »^(١)

« ولما كثرت حروبه أدمج كثيراً من الأهليين في صلب جيشه ، بل حاول أن
ينشئ جيشاً مصريةً بحتاً يعهد إلى بعض الضباط الروس بتدريبه على النظم
الأوربية وإنشائه على الطراز الحديث ، بدلا من الطراز المملوكي القديم »^(٢) .

بعد أن اطمأن على بك إلى استقرار الأمن في الحجاز واليمن ، انتقل
إلى تخليص سوريا من النير العثماني . فألف جيشاً من ثلاثين ألف جندي ،
واختار لقيادته أيضاً مملوكه أبو الذهب . وسار هذا الجيش من نصر إلى نصر
حتى دخل دمشق وفتح الطريق إلى جبال طوروس ، واندحر الجيش العثماني
فتحررت منه سوريا كلها ، وأصبحت جزءاً من الوطن العربي الكبير ، الذي

(١) ص ٥٩ من كتاب : [ثورة على بك الكبير] للاستاذ أنور زقلمة ،
« البيان العربي ١٩٥٢ » .

(٢) ص ٧٤ من المصدر السابق .

خلع نير الحكم، بل الظلم، العثماني. ووحدت مصر بين أجزائه كلها. ماعد فلسطين. وهنا بدأ ظل الخيانة، وكان التواطؤ بين الدولة العثمانية وبين محمد أبو الذهب، مملوك على بك وتابعه، على أن يخرج المملوك القائد عن طاعة سلطانه وسيده على بك. على أن تترك الدولة لأبي الذهب حكم سوريا ومصر، وتمنحه رتبة الباشوية، التي لم يفلها على بك ولا أحد من المماليك. وبعض المؤرخين يقول إن الدولة أعطت أبو الذهب ذهباً كثيراً، رشوة له على هذه الخيانة. وتم الاتفاق على أن يعلن أبو الذهب رجوع مصر وسوريا إلى التبعية العثمانية. واستخدم الدين أيضاً وسيلة لقبول هذه الخيانة. فأعلن العثمانيون أن على بك يحارب « خليفة المسلمين » وأنه ينتصر عليه بالأجانب الغير المسلمين

بعد أن تم التواطؤ على هذه الخيانة. بدأت مراحل تنفيذها بعودة أبي الذهب مع جيشه إلى مصر، أي الانسحاب من سوريا، بعد تطهيرها من العثمانيين، وتركها لهم صيداً في اليد. وإشاعة السكراهية والحسد في نفوس المماليك ورجال الجيش ضد على بك والزعم بأن الجيش قاتل وحارب وانتصر في سوريا وغيرها، بينما على بك في القاهرة يجنى ثمار هذا الانتصار وينال بها الجسد والعزة والمالك. وعاد أبو الذهب وجيشه إلى القاهرة، وكانت خالية أو شبه خالية من الجند. فاستولى أبو الذهب عليها. وخرج منها على بك إلى صديقه الشيخ ظاهر عمر، حاكم عكا، وبعونه الشيخ

ظاهر ومعونة قطع من الأسطول الروسى كانت تقف فى مينائها ، استطاع على بك أن يتغلب على فلول الجيش العثمانى . وأن يعيد الوحدة بين مصر وسوريا . بل استولى على الجزء الأكبر من فلسطين أيضا . وهزم العثمانيين فى معركة فاصلة بالقرب من قرية « صعير » فى يوليو من سنة ١٧٧٣ .

وبدأت خيوط الخيانة تمتد . فاتفق أبو الذهب مع جماعة من الخونة على أن يرسلوا على بك خطابا يشكون فيه من ظلمه — أى ظلم أبى الذهب — . ويطلبون من على بك أن يبادر بالرجوع إلى مصر لينقذهم من ظلمه . وكان على بك يتهيا لتصفية حسابه مع أبى الذهب ، وتأديبه على خيانتهم وإفساده ، فبادر بالرجوع إلى مصر ، معتقدا أنه سيفجؤ بأبا الذهب فى القاهرة على غرّة ، ويفة تحبها عليه ، وسيكون الشاكون المدّسّون عوناً له على أبى الذهب . حتى يخلصوا من ظلمه ، كازعموا . ولكن أبا الذهب كان على علم بقدوم على بك . فتلقاه مع جيشه عند الصالحية . ومع أن جيش على بك كان أقل عدداً من جيش أبى الذهب ، فقد استطاع على بك أن يتغلب أول الأمر ، ولكن أبا الذهب استطاع أن يتصل بخانين آخرين من جيش على بك وأن يفتنهم عن أمانة سيدهم وزعيمهم . وعادت الحرب مرة أخرى ، فهزم على بك وجرح وجهه ، ووقع فى أسر مملوكه وتابعه الخائن أبى الذهب . بعد أن بلغ غاية الشجاعة فى

الحرب ، وبعد أن أبلى في الدفاع عن نفسه أكرم بلاء ، وقُتل حوله خاصة حرسه كلهم . ووقف أبو الذهب يتلقى سيده على بك وهو جريح ، ويصف الجبرتي ، صديق على بك وأبا الذهب ، هذا اللقاء وصفاً شاعرياً ، يقول إن أبا الذهب قبّل يد على بك ، وأعاناه على السير ، ورافقه إلى خيمته فأجلسه في صدرها ، في موضع جلوسه هو ، ثم نقله إلى القاهرة مر يضاً ، فأحضر له أبو الذهب عدداً من الأطباء لتمر يرضه . ولكن على بك مات بعد وصوله القاهرة بسبعة أيام . وتحدث الناس في القاهرة عن السم الذي دسّ للبطل الشهيد على بك ، وسجّل الجبرتي حديثهم هذا . وقد رأينا من صفات الخيانة والغدر عند أبي الذهب ما يجعل هذا الحديث محتملاً ، أو ممكناً ، أو راجحاً . وكانت وفاة على بك في اليوم الخامس عشر من صفر سنة ١١٧٨ [٨ مايو ١٧٧٣] م ودفن في قرافة الإمام الشافعي إلى جوار أستاذه إبراهيم كتنخدا . ولم يقد الخائن أبو الذهب من غدره شيئاً . فقد خرج بعد ذلك لحرب الظاهر عمر حليف على بك ، في عكا . ولكنه لم ينل ما يريد ، فقد فاجأه الموت بعد قليل . وكانت الدولة العثمانية بدأت تدفع له ثمن خيائته ، فأُنعمت عليه برتبة « الباشوية » ، ولكنه مات قبل أن تصل إليه برائتها . ودفن في مسجده أمام الجامع الأزهر . بعد أن نقل من سوريا ، حيث مات ، إلى القاهرة . فتعيرت رأخته . وكانت تسير أمام نعشه مجامر العود والعنبر لستر الرأحة .

وهكذا نجد أن مصر قد نالت استقلالها كاملاً غير منقوص ، وتحررت من التبعية العثمانية ومن الاحتلال التركي ، وقامت بعد ذلك بتحرير البلاد العربية من هذه التبعية وهذا الاحتلال . وقامت ، على يد مصر ، وحدة عربية كاملة شملت بلاد الحجاز ، وسوريا ، واليمن ، وفلسطين . وكان هذا كله على يد جيش مصري شجاع ، يقوده بطل مصري الشعور والعاطفة والإحساس . هو على بك الكبير . ولولا الخيانة التي لجأت إليها الدولة العثمانية وتآبى بها أبو الذهب لبقيت هذه الوحدة ما شاء الله لها أن تبقى . ولتغير وجه التاريخ في هذه المنطقة من الوطن العربي ، وأغلب الظن أنه كان يتغير في مواطن أخرى من العالم .

وقد لقيت هذه الوحدة بين البلاد العربية يوم ذاك صدى عميقاً من البهجة والفرح . فقد كان هذا الانتصار على الجيوش العثمانية ثأراً لمصر ، استردت به كرامتها التي أهدرتها الخيانة أيضاً في «مرج دابق» ، ومعارك القاهرة وغيرها مع السلطان سليم ، وثأراً لدم سلطان مصر الشهيد «طومان باي» الذي سَفَكَه سليم عدواناً وظلماً^(١) . فعندما وصات القاهرة أنباء الانتصارات التي نالتها جيوش مصر على الجيش العثماني

(١) أنظر فصل : [السلطان الشهيد طومان باي] في هذا الكتاب .
(م ٦ — بطولات عربية)

في سوريا ، أقام أهلها الزينات الرائعة ، والأفراح البهيجة ، ولبست أحياءها كلها أبهى حلة من الأنوار والأعلام . ودامت هذه الأفراح والزينات ثلاثة أيام بلياليها ، وأقيمت الولائم في كل مكان . وأطلقت المدافع ، وسارت المراكب في النيل تزئنها الأنوار ليلاً ، وتطلق منها الصواريخ . واستولى على الناس جميعاً الفرح الشامل والسرور البالغ .

* * *

وكذلك شهد المصريون في حكم علي بك من الأمن والرخاء ما لم يستعدوا به من قبل . كان المسافر ، كما قال الجبرتي ، يسير ، بمفرده ، ليلاً « راكباً أو ماشياً . ومعه يحمل الدراهم والدنانير ، إلى أى جهة . ويبيت في الغيط أو البرية » وهو آمن لا يناله سوء ، ولا يعتدى عليه أحد .

وحارب علي بك ، بقسوة بالغة ، المفسدين والمرتشين . ولو كانوا من العلماء . وكان بعضهم يتدخل لدى القضاة ، ويقدم لهم ، عن أحد طرفي الخصومة ، رشوة . فعاقبهم ، وعاقب القضاة الذين يقبلون ذلك ، واشتد في عقابهم بالضرب والنفي ، والقتل أيضاً . وكذلك فعل مع اللصوص وقطاع الطرق . فسكان ما رأينا من الأمن والطمانينة .

وكذلك وصف الجبرتي ، وقد شهد هذه الفترة ، ما كان في مصر من الرخاء فقال إن الحياة كانت رخية ، والمكاسب وافرة ، والخير كثيراً .

وشهد الرحالة الفرنسي سافاري بأن مصر سعت في عهد علي بك بنزاهة في الإدارة والحكم كانت تتطلع لها منذ أمد طويل .

وكان علي الكبير يتمتع بمكانة شعبية كبيرة ، ومحبة يشترك فيها الناس جميعاً .

كان علماء الأزهر — زعماء الشعب وسفراءه يوم ذاك — يؤيدونه ويرجعون كفته على الدوام في خصوماته الكثيرة العنيفة مع المماليك ، في أول عهده . كان يترك القاهرة في بعض الأحيان ، مغاضباً أو مقهوراً ، فكان العلماء والناس يطلبونه حتى يعود . وقد اشتد الشيخ محمد الحفناوي ، أو الحفنى ، وكان أبرز علماء عصره وأكثرم شجاعة ونزاهة وزهداً^(١) اشتد الشيخ محمد الحفنى على خصوم علي بك من المماليك وألقى عليهم حديثاً شديداً عنيفاً ليرتكوا مخاصمته التي كانت سبباً في « خراب الأقاليم والبلاد » كما قال الشيخ الحفنى ، فلم يغضبوا من حديثه وشده .

(١) ترجمة الشيخ الحفنى ص : ١٥٧ — ١٦٢ من كتابنا (دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر) الجزء — ٢ — من الطبعة الثانية .

وكان على بك يمتاز بالهيبة العظيمة والذكاء الفائق ، روى الجبرتي أن بعض من دخل عليه مات من الرعب . ولكنه كان ، إلى ذلك ، رقيقاً ، مؤنساً . يلاطف جلساءه . ويقرأ ما يرفع إليه من الشكاوى بنفسه . ولا يوقع على أمر إلا بعد أن يتدبره ، مهما كان صغيراً . وكان يقرأ التاريخ ، وسير ملوك مصر . ولا يجالس إلا أهل العلم والوفار ، ولا يكثر من الكلام مع جلسائه ، ولا يضاحكهم ، مهما علت مكانتهم .

وأما حكمه ، فقد امتاز بإبطال الرشوة . حيث كان يتتبع بنفسه المرتشين ، فينزل بهم أشد العقاب ، ولو كانوا من أهل النفوذ والسطوة . وأولى عناية كبيرة بأمن البلاد حتى كان المسافر يسير منفرداً ، من بلد إلى بلد ، ليلاً ، وهو يحمل المال الكثير . ثم لا يعترضه سارق ولا مغتصب . كما رأينا من قبل .

ومن مماليكه مراد بك وإبراهيم بك . ولهما في تاريخ مصر بعد ذلك دور هام ، وأحد باشا الجزائر ، الذي ردّ نابليون عن أسوار عكا .

محاولة أخرى للاستقلال مصر

من عظماء الرجال الذين ترجم لهم الجبرتي من المصريين في تاريخه الحافل : « مجانب الآثار في التراجم والأخبار » : المعلم يعقوب ، زعيم القبط ورئيسهم في عصره .

وقد ترجم له الجبرتي ولكن لم يوفه حقه . ونحن نلخص سيرته عن الجبرتي وعن مصادر أخرى مختلفة ، في هذه السطور . ثم نتحدث عن محاولة له لنيل استقلال مصر .

ولد يعقوب في ملوى حوالي سنة ١١٥٨ (١٧٤٥ م) ثم دخل في خدمة كبير الانكشارية سليمان أغا أيام حكم علي بك الكبير . وكان يتولى إدارة الشئون المالية لسليمان أغا هذا ، فجمع من عمله وسعيه ثروة كبيرة . فلما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، أعلنها يعقوب وأنحاز إليها وقدم لها مساعدات ذات قيمة .

فقد التحق بجيش الجنرال ديزيه قائد الفرنسيين في الصعيد . وشارك هذا القائد في مطاردة مراد بك ، وكان يدبر لهذه الحملة ماتحتاجه من مؤن ، ويحارب بسيفه أيضاً معها . فلما عادت الحملة إلى القاهرة ، وُكِّل إليه الجنرال

كليب تنظيم مالية البلاد ، واستخلاص الضرائب والمغارم التي يفرضها الفرنسيون على مصر ، وعلى النافرين من أهلها خاصة . ويقول الجبرتى إن الفرنسيين أطلقوا له فى ذلك حرية واسعة ، وجعلوا له نفوذ كبيراً بعد ثورة القاهرة الأولى عليهم ، فكان يفعل بأهلها ما يشاء^(١) . حتى جمع للفرنسيين ما فرضوا من مغارم ثقيلة .

وقد هدم يعقوب الأماكن المجاورة لمسكنه فى حارة النصارى ، وخلف الجامع الأحمر . وبنى له قلعة سورّها بسور عظيم ، ووضع فيها الأبراج وأقام فيها المدافع . وكذلك فعل بما يحيط بحارة النصارى كلها . وأقام على ذلك كله حراساً مسلحين ، على النظام الفرنسى .

ولما جاءت الجيوش العثمانية والإنجليزية لإخراج الفرنسيين من مصر ، كان يعقوب يعمل قائداً مساعداً للجنرال بليار . يدافع معه عن القاهرة حتى لا تدخلها هذه الجيوش .

وقد كافأه الفرنسيون ، فأنعموا عليه بسيف ، وجعلوه مستشاراً لهم ومديراً للشئون المالية والضرائب ، ثم أنعموا عليه بلقب جنرال :

(١) هذا ما يقرره الجبرتى . وسنرى بعد قليل ما يقوله المعلم يعقوب من أنه كان يستخدم مكائده ونفوذه عند الفرنسيين فى التخفيف عن المصريين .

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر ، كان من شروط تسليمها أن يُسمح لمن يشاء من الذين عملوا معها ، ولو لم يكن فرنسيا ، أن يصحبها ، فخرج يعقوب وركب البارجة الانجليزية باللاس ، مع الجنرال بليار . وكانت آخر البوارج التي غادرت ميناء الإسكندرية . وبعد يومين من سفرها أصيب الجنرال يعقوب بمرض ، ثم مات في صباح يوم ١٦ أغسطس سنة ١٨٠١ ولم تلق جثته في البحر ، بل حملت إلى حيث دفن في مرسيليا بمقبرة القديس بطرس . بعد أن شيع جثمانه في احتفال عسكري مهيب .

وقد نشرت الجمعية الجغرافية المصرية في القاهرة سنة ١٩٣٤ وثائق^(١) محفوظة في وزارة الخارجية البريطانية تتضمن مشروعا كان المعلم يعقوب قد تحدث به إلى رجال البارجة ، وهي في طريقها من الإسكندرية إلى مرسيليا . ويتضمن المشروع بفوداً وعروضا لاستقلال مصر بضمان الدول الأوربية عامة ، وانجلترا خاصة . ويبيح تكوين جيش مصرى خالص ، لردّ العدوان عن هذا الاستقلال .

وقد اختلف المؤرخون في الحكم على المعلم الجنرال يعقوب حنسا ، بعضهم يرى أنه كان زعيما وطنيا آثرا أن يعين الفرنسيين حتى يخلص وطنه

(١) نشرت نصوص هذه الوثائق أيضاً في مجلة مصر الحديثة المصورة ، عدد يونيو سنة ١٩٢٨ . نقلا عن وثيقة وزارة الخارجية البريطانية برقم : ٧٨ مجلد : ٣٨ .

من حكم الأنراك والماليك . فلما فشل في ذلك بالحرب ، حاوله بالسياسة .
وتحدث في ذلك إلى رجال البارجة الانجليزية ، تمهيداً للحديث فيه مع كبار
الساسة منهم .

وبعضهم يقول : إنه أراد أن يكسب لقومه مغائم وجاهاً ،^(١) .
وأياً ما كان القول في الجنرال يعقوب ، أو المعلم يعقوب معنا ،
فدحن نجد في هذا المشروع الذى كان يسمى إليه لتحقيق استقلال مصر
شيئاً من الضوء على عواطفه وأهدافه ومراميه ، ومن ثم على شخصيته
وسيرته .

مشروع المعلم يعقوب

ركب المعلم يعقوب البارجة الإنجليزية : « بللامر » وهى البارجة التى
رحل عليها القائد الفرنسى الجنرال بليار عند مغادرته مياه الإسكندرية
مع جيوش نابليون المنسحبة من مصر . وغادرت البارجة الميناء يوم ١٠ من
أغسطس سنة ١٨٠١ ، وقبل أن تغلق البارجة تلقى الجنرال بليار كتاباً

(١) تلخيص عن كتابنا (دراسات في تاريخ الجوتى ، مصر فى القرن
الثامن عشر) ص : ١٥٩ — ١٦١ من الجزء الأول ، الطبعة الثانية . « الرسالة » .

من القائد التركي قبطان باشا حسن يستميل فيه المعلم يعقوب البقاء في مصر ، ويرجو من القائد الفرنسي أن يبذل وساطته عنده ليعدل عن عزمه على مغادرة مصر ، ولسكن هذه الوساطة لم تفلح .

وفي اليومين التاليين لرحيل البارجة أفضى المعلم يعقوب بتفاصيل مشروعه لقائد البارجة الضابط : « جيرزيف آدموندس » وكان القائد يسجل هذه التفاصيل ويرسلها إلى السكونت سان فنان ، اللورد الأول في إنجلترا ووكيل البحرية البريطانية . ومن هنا ندرك المسكنة التي كان يتمتع بها هذا الزعيم المصري ، والاهتمام الذي لقيه شخصه ولقيه مشروعه لاستقلال مصر .

يقول يعقوب في حديثه مع قائد البارجه إن حكم الأتراك لمصر كان أسوأ حكم يمكن أن يتصوره إنسان . ومع هذا فقد كان يستطيع أن يبقى في وطنه ، وأن يعيش فيه سعيداً هانئاً ممتعاً بثروته السكبيرة . ولسكنه يريد أن يحقق لوطنه خيراً بالسعي إلى استقلاله . وهو يشعر بأن له منزلة ملحوظة عند الفرنسيين — ولو أنه لا يبرئهم من خداعه — ، وأنه استفاد من هذه المنزلة في تخفيف كثير من الآلام التي أوقعها الفرنسيون على أبناء وطنه في فترة احتلالهم مصر . لذلك يعتقد أن مساعده هذا الاستقلال سيلقى انتباهاً وتشجيعاً من نابليون إذا عرض عليه والعنى هو به شخصياً .

كما سياتى حديثه ومشروعه مثل هذا الانتباه والتشجيع من الدول الأوربية الأخرى ، ومنها إنجلترا .

ومن ذلك نعرف أن المعلم يعقوب كان يريد أن يجعل من قضية مصر واستقلالها « مسألة دولية » . وهو الوضع الذى أخذته المسألة بعد ذلك فعلاً بعد قرن وربع قرن ، بعد أن خرج منها الأتراك واحتلها الانجليز . أى بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى .

ولكى يجعل المعلم يعقوب لقضية مصر هذه المنزلة الدولية ويبرز استقلالها أيضاً ، قال إن مصر بوصفها الجغرافى ومكانها وسط العالم المتحضر المتخاصم ، ووقوعها على بحرين من أهم بحار العالم ، وقارتين من أكبر قارانه ، مصر بوصفها هذا ستكون ، وهى مستقلة ، ميزاناً للقوى فى هذه المنطقة وعاملاً من عوامل « الحياد » وتلطيف الخصومات الحادة التى كانت قائمة متمكّنة يوم ذاك بين إنجلترا وفرنسا . كما تكون مبرراً أميناً لتجارة العالم مع آسيا . وتكون موانئها وتجارها ومحاصيل أرضها الخصبه من أكبر عوامل الرخاء للدول أوربا .

فقد كان المعلم يعقوب - إذن - يفكر - وهو يعرض مشروعه - فى موقف « الحياد » الذى تتخذه مصر المستقلة . ولو كان اصطلاح « الحياد

الإيجابى «الذى تنادى به الجمهورية العربية المتحدة الآن معروفًا يوم ذاك» ، فأكبر الظن أن المعلم يعقوب كان ينادى به ويلتزمه لوطنه .

بعد أن انتهى يعقوب من إيراد المبررات لاستقلال مصر ، وانتهى من ذكر فوائد هذا الاستقلال للدول الأوربية ولأمن العالم كله ورخاءه ، انتقل إلى نوع الحكم الذى تحكم مصر نفسها على أساسه : كيف يحكم المصريون أنفسهم . . . ؟ وكيف يدافعون عن بلادهم ؟ .

يقول يعقوب فى جواب السؤال الأول إن حكم الأتراك والمماليك لمصر جعل أهلها يقبلون ، بل يرحبون ، بحكومة تخرجهم من ظلم الأتراك وجبروتهم ، ويقبلون ، بل يرحبون ، بحاكم مصرى منفرد ، يكون له عليهم السلطان المطلق ، حتى يتحقق لهم على يديه الأمن والرخاء ، ويصلح أحوالهم المضطربة ، وينمى زراعة أرضهم الخصبة التى يضعف الاستفادة منها الظلم وعدم الاستقرار . وما دامت مصر نالت استقلالها باتفاق الدول الأوربية ، فستضمن هذه الدول حيادها ، وتهيب على حاكمها هذا جميع الفرص للنهوض ببلادها فى مقابل المزايا التى تنالها الدول الأوربية . ، والتى ذكرها من قبل .

ويقول المعلم يعقوب فى جواب السؤال الثانى إن مصر فى هذه الحالة .

أن يقع عليها عدوان إلا من جانب تركيا ، التي تريد أن تعيد سيطرتها الظالمة عليها ، ومن جانب المماليك الذي استمرءوا حكمها وجعلوا منها مسرحاً لخصوماتهم وحروبهم . وعلاج ذلك أن يؤلف جيش مصرى خالص يبدأ تسكويته بنحو ١٢ أو ١٥ ألف جندي^(١) . وهذا الجيش المصرى كافٍ لحصر الأتراك فى الصحراء إذا حاولوا الرجوع إلى مصر مرة أخرى ، وللقضاء على المماليك فى داخل البلاد .

وكان المعلم يعقوب وهو يفسكر ويتحدث عن حكم مصرى خالص ، وحاكم مصرى منفرد بالحكم موصوفٍ بالوطنية والعدالة والحرص على خير بلاده . كان وهو يفسكر ويتحدث فى ذلك يستذكر مثلاً قام فى مصر وشهده هو ، كما شهدته وتحمده إقليم من أقاليم مصر فى الصعيد . وهو حاكم شيخ العرب همام ، زعيم الهوارة^(٢) وقد ذكر اسم هذا الحاكم فعلاً وتحدث عن فترة حكمه وهو يفصل مشروعه للقائد الإنجليزى جوزيف آدموندس ،

(١) كان عدد سكان مصر فى ذلك الوقت أقل من ثلاثة ملايين .

(٢) كان يقيم فى « فرشوط » ويحكم منطقة واسعة من الصعيد . وكان نادر المثال فى كرمه وخلقه ، واسم الثروة والجاه : أنظر ترجمة له فى الجزء الأول من كتابنا : (دراسات فى تاريخ الجبرتي ، مصر فى القرن الثامن عشر ، ١٥١ — ١٥٤ من الطبعة الثانية) : وكان الجبرتي يسميه : « الأمير » شرف الدولة همام بن يوسف ابن أحمد الهوارى ، ملجأ الفقراء والأمراء .

وقال إن مثل هذه الحكومة المصرية الخالصة ستكون « من المؤكد محترمة ومطاعة ومحبوبة ». وأنهادتضمن العدالة لجميع المصريين. أكثريتهم المسلمة وأقليتهم القبطية على السواء . وأنه — وهو زعيم قبطى — يؤمن بذلك ويؤكدده ، وأنه يتحدث عن ذلك باسم طائفته المسيحية .

وكذلك يقول المعلم يعقوب إنه ، وهو يعرض مشروعه هذا لاستقلال مصر وحيادها ، مفوض من « البعثة المصرية » التى يوجد بعض أفرادها معه فى البارجة الإنجليزية وبعضهم لا يزال فى مصر ، ولكن من المجازفة إعلان ذواتهم وكشف أسمائهم ، خوفاً عليهم من انتقام الأتراك .

و « اسم البعثة المصرية » الذى اختاره يعقوب لجماعته يذكرنا باسم « الوفد المصرى » الذى تألف بعد ذلك بأكثر من قرن ، عقب هذنة الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٨ برئاسة سعد زغلول للسعى لاستقلال مصر وتخليصها من الاحتلال الإنجليزي . بل يكاد الإسمان أن يكونا متطابقين .

ثم يقول المعلم يعقوب إنه وأعضاء البعثة المصرية ، يشاركون فى ذلك عقلاء المصريين ، يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن حصول مصر على استقلالها : « يبدد ظلام الجهل والهمجية الذى يحتم على تلك البلاد الشهيرة ، التى

كانت مهد النور والعلوم والفنون ، بل مركز المدينيات الأولى التي نقلها الإغريق عنها ... وأن استقلال مصر هذا سيجعلها ، بلا شك ، عامرة زاهرة غنية بمحصولاتها الغزيرة من أرضها الخصبة ومركزها التجاري في أفريقيا .

ثم يقول إن مراد بك كان يدرك مطامع الدول الأوروبية في مصر ، وأنها تتجسس عليها وتعرف من أمورها الشيء الكثير وتتطلع لامتلاكها ، وأن ذلك سيكون سببا دائما لتنازع الدول الأوروبية . و مراد بك على حق في فهمه وفي تخوفه وفي استنتاجه ، وليس هناك مخرج من هذا كله سوى استقلال مصر وضمان حيادها . وهذه نظرة للمعلم يعقوب أظمرت الأيام فيما بعد صدقها وخاصة في القرن التاسع عشر ، عندما صارت « المسألة الشرقية » من المشاكل العالمية الكبرى ، كما نعرف .

ثم يعود المعلم يعقوب مرة أخرى إلى ذكر ضرورة الحرص في معالجة هذا الأمر والحرص على السرية التامة في شأن المتحدثين فيه ، فيقول : « إن البعثة المصرية متصلة بلا تحزب ، بالعناصر الوطنية المختلفة في مصر . ولها فروع منتشرة خفية ، وستبقى في خفية عن عيون الحكومة التركية في مصر . وهذا حذر لا بد منه توقياً من الاستبداد المريب الذي لا يتأخر عن تضحية آخر فرد من الإخوان المشغولين بهذا الأمر ، إذا علم ذلك ... إن الذين خرجوا من مصر يستطيعون أن يكونوا في مأمن من الاضطهاد

والخطر . ولكن ذلك ليس شأن إخواننا في مصر ، لأنهم تحت السيف
والعصى . فهم مكرهون على التخفي والتظاهر بأنهم العبيد الغيورون
المخلصون للباب العالي » « التركي » .

هذه خلاصة وافية أمينة لمشروع المعلم يعقوب لتحقيق استقلال مصر
الذى تحدث به إلى قبطان البارجة الإنجليزية وهى تشق مياه البحر الأبيض
من الإسكندرية إلى مسيليا . وقد كتب المترجم « لاسكارس » وثيقة
هذا المشروع بعد وصول البارجة إلى ميناء طولون ، فى ٢١ سبتمبر من
سنة ١٨٠٩ .

ولكن صاحب هذا المشروع وهذه المحاولة ، ورئيس « البعثة المصرية »
إلى أوربا كان قد مات قبل أن يسجل المترجم « لاسكارس »^(١)
تفصيل ما تحدث إليه به صاحب المشروع : المعلم يعقوب .

فقد مرض يعقوب بعد رحيل البارجة بيومين ، وظل مريضاً إلى أن

(١) كل ما يعرف عن لاسكارس هذا أنه ولد فى سنة ١٧٧٢ فى بروفنس
— جنوبى فرنسا — وأنه كان فى جزيرة مالطة عند ما دخلها نابليون فى طريقه
إلى مصر ، ومن جماعة « فرسان مالطة » . ثم سار مع حملة نابليون إلى مصر .
وعند انسحاب الجيش الفرنسى منها ألحق بصحبة المعلم يعقوب وقامت بينهما صداقة
مشاركة زادها توثقاً ما كان يتمتع به لاسكارس من الذكاء وسعة الخيال .

— ٩٦ —

مات بعد ستة أيام ، كما سبق ، في ١٦ أغسطس . ولم تطرح جثته في البحر ،
كما جرت العادة ، بل حفظت في برميل من « الروم » ، وأنزلت في
مرسيليا يوم ٢٢ سبتمبر ، حيث دفنت فيها .

وبذلك طوّت المقادير صفحة من كفاح مصر للحصول على استقلالها .
وطوى الموت المفاجيء بطلاً من أبطالها الذين حاولوا « تدويل » القضية
المصرية بغية الحصول على هذا الاستقلال ، وعلى حياد مصر أيضاً .

مؤرخ القومية العربية وعبد محمد علي

هذه بطولة لم تكن في موقف واحد ، أو عدة مواقف برزت في حياة إنسان ، وهذا بطل لم يكنه أن يقف موقف البطولة أمام حادثة واحدة ، أو رجل واحد ، أو ظرف خاص . بل هي بطولة جابهت المواقف والأحداث جميعاً ، وهو بطل كانت حياته كلها موقفاً واحداً متلاحقاً متصلاً من البطولة النادرة والشجاعة الباقية الخالدة . وخاصة في ختام حياته ، حيث كان يستطيع أن يجد من مرضه ، وحاجته ، وشيخوخته عذراً للتقية أو التخلف ، أو المداواة . بل كان يستطيع أن يجد عند خصمه وعدوه : « محمد علي » المالَ والجاء والراحة ورغد الحياة . ولكنه مصرى عظيم ، عاش بطلاً ومات ميتة الأبطال .

« ها نحن أولاء نرى مثلاً ناطقاً بقوة الحق وسلطان الصدق .. فحمد على الذي أزال دولة المماليك وزحزح ملك آل عثمان في مصر وهذه خارجها ، وأسس ملكاً دام مائة وخمسين سنة ، واصطنع ما استطاع من حيلة وكيد ، لم يستطع أن يسكت صرير القلم ولا أن يطمس نور الحق ، وصدقت (م ٧ — بطولات عربية)

كلمة الله .. أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال . »^(١)

أما صرير القلم الذى لم يستطع محمد على أن يسكته ، رغم ما اصطنع من حيلة وكيد ، فكان منه ذلك السجل الرائع الحافل الشيق الذى ألفه الجبرتي عن تاريخ مصر « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ومؤرخنا ، عبد الرحمن الجبرتي ، من أسرة عريقة ، نزع جده السابع — واسمه عبد الرحمن أيضاً — من « جبرت » وهو إقليم إسلامي فى الحبشة . وأقام بالحجاز زمناً ، ثم قدم مصر واستقر بها وقد بقيت مشيخة هذا الرواق : « الجبرت » فى الأزهر يتداولها أبناؤه وأحفاده ثلاثة قرون . حتى خرجت منهم بوفاته عبد الرحمن الصغير هذا .

وكان الشيخ حسن ، والد عبد الرحمن ، عالماً واسع الثراء ، مرفّه العيش ، كبير المنزلة . يعيش متنقلاً بين قصوره فى القاهرة ، وعلى شاطئ النيل ، فى بولاق . وكان صديقاً لسكل أمير من المماليك ، الذين عاصرهم ،

(١) من البحث الذى كتبه الاستاذ أحمد حسن الزيات ، عن كتابنا « دراسات فى تاريخ الجبرتي ، مصر فى القرن الثامن عشر » وألقاه الأستاذ إبراهيم مصطفى عند ما أعلن « مجمع اللغة العربية » استحقاق الكتاب لجائزة المجمع الأولى عن البحوث الأدبية [جلسة المجمع العالنية لنوزيم الجوائز فى مساء يوم الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٥٥] . ص : ٤٧ — ٥٠ من « مجلة مجمع اللغة العربية » الجزء — ١١ — سنة ١٩٥٩ .

وللولاة العثمانيين الذين كانوا يوفدون من الدولة لحكم مصر . كما كان متين الصلة بعلى بك الكبير الذى استقلّ بحكم مصر فترة قليلة من الزمن والذى تحدّثنا عنه فى الفصل السابق، وكان يتقن اللغة التركية، لغة الحكم والسيادة ، إذ ذاك . ويعرف علوم الطب ، والفلك . والموازن — ويحيد صنعها ونحريها — كما يعرف علوم الفقه . ويقول الشعر . وتولى ، وهو عالم ، بعض الوظائف الكبرى . فكان حاكماً على قلاع العريش ، والطور ، ومويلح ، ثم قتل أحد عبيده فى قلعة منها ، فزهد هذه الوظائف وتركها .

وفى سنة ١٧٥٤ « ١١٦٧ هـ » ، فى يوم من أيام الاعتدال ، بشر الشيخ حسن الجبرتي بأن قد ولد له غلام من إحدى سراريه الكثيرة . وأغلب الظن أنها كانت شركسية ، أو تركية . وكان حراً بالشيخ أن يتهيج قلبه ، وأن تطيب نفسه بهذه البشرى . ولكن هذه البهجة وهذا السرور كانا مشوبين بكثير من الحزن والقلق والتوجّس . إذ كان قد ولد للشيخ قبل هذا الغلام ، نحس وأربعين مولوداً ، بين ذكر وأنثى ، لم يش منهم أحد .

وشاء الله أن يعيش هذا الغلام ، الذى سماه أبوه « عبد الرحمن » وأن يولد للشيخ بعده غلامان ، مانا طفلين . ثم شاء الله أن يبقى عبد الرحمن هذا ، وحده ، من ذرية الشيخ . وأن يعمر حتى يجاوز السبعين . وأن يكون

هو مؤرخ مصر الحديثة ، ومؤلف « عجائب الآثار في التراجم الأخبار » .
وأخذت تنقرض — بموت عبد الرحمن هذا — أسرة الجبرتي ، بعد
أن بقيت ثلاثة قرون تنجب رجالاً لهم في مصر صدارة العلم والخلق الكريم
ولهم كذلك كرامة المال والثراء .

وشاء الله أيضاً أن تحترق ، بعد فاته ، المكتبة الحافلة العظيمة ، التي
تركها له أبوه ، والتي زاد فيها أيضاً . وأن يحترق معها بيته ، في الصناديق
قريباً من الأزهر . لذلك عاشت بنته وابنه — أو ابناؤه على خلاف بين
المؤرخين — عيشة ضنكا . بعد أن فقد منهم المال ، وأبعد عنهم العلم .
وفقدوا بذلك الصدارة والكرامة .

وكان أبوه محباً للأغنى والقصص . فكان يحدثه عما يعرف من أنباء
عصره . وقصص أصدقائه من الأمراء والماليك ، والولاة . ثم مات أبوه ،
وهو في الثانية والعشرين . وخلف له ثروة ضخمة ، مادية وأدبية . فقد
كانت لأبيه ، كما ذكرنا ، مكتبة عامرة بنفائس المخطوطات ونواذرها .
كما ترك له مكاناً بارزاً مرموقاً عند العلماء والأمراء على السواء .

هذه الثروة وتلك المسكنة ، مكنتنا له من صداقة الأمراء والولاة .

فكان على صلة وثيقة بهم ، وهو بذلك مؤرخ عليم ، دقيق .
متصل بأهل السلطان . وخاصة بمحمد بك الألفى آخر العظماء
من المماليك .

ولكن هذه الصلات التي كانت تصل إلى الصداقة المتينة ، لم تحل
بينه وبين أمانة المؤرخ ، فهو يقسو أشد القسوة على أصدقائه من كبار المماليك
والولاة إذا رأى في تصرفهم ما يبرر هذه القسوة ، بل يمدح الفرنسيين
ويطري نابليون ، على أشياء يرى أنها تستحق الإطراء .

ومن هنا نستطيع أن نؤكد أنه لم يختصّ حكم محمد على بنقده ،
لخصومة بينهما ، كما يقول بعض المؤرخين . بل كان يقول في محمد على
ما يعتقد أنه حق ، كما كان يقول في أصدقائه مثل ذلك . وقد ذكر
أنه حين ألف تاريخه لم « يقصد بجمعه خدمة ذى جاه كبير ، أو طاعة
وزير أو أمير . ولم يداهن فيه دولة بنفاق . أو مدح أو ذمّ مبين للأخلاق
لميل نفساني ، أو غرض جسماني » وقد لازمته هذه الشجاعة والأمانة حقاً
في جميع ما كتب وسجل من حوادث عصره .

وقد كانت هذه الشجاعة والأمانة سبباً لشقاء كبير لقيه المؤرخ الشيخ في آخر
حياته ، كما نرى بعد قليل .

وهذا مظهر من مظاهر الشجاعة النادرة التي اتصف بها الجبرتي ،
ولازمته حياته كلها . حتى في أشد الظروف والأحوال قسوة
ومرارة وعنقا .

رائد القومية المصرية :

وحياة الجبرتي وتاريخه يجب أن ينالا ، في هذا العهد خاصة عهد
الثورة والحكم المصري الخالص ، أضعاف ما لقيما إلى اليوم من عناية .
وبكفيك من حياته أنه قتل ، أو قتل ابنه ، غيلة في عهد محمد علي ، لأنه
كان أمينا على مصريته ، صادقا في تصوير ما لقيت هذه القومية عن عنت
وظلم ومحنة على يده . مسجلاً كل ما استطاع أن يسجل ، بأمانة وتفصيل ،
إحساساته نحو هذا البلاء الذي لقيه شعب مصر من محمد علي . والوقائع ،
أو ما علمه من الوقائع ، التي أثارت عنده هذا الإحساس .

فالجبرتي هو رائد القومية المصرية الحديثة . نقرأ تاريخ مصر منذ
عرفها التاريخ ، فنراه كله تاريخاً للموك والوزراء والعمال والولاة والعلماء
وما جرى من الحروب والغزوات والوقائع . حتى ابن إباص ، وهو المصري
الذي سجل تاريخ مصر إلى الفترة التي بدأ بعدها الجبرتي ، فكان

أقرب المؤرخين إليه زمناً ووشيجةً وأصرةً ، حتى ابن إياس لم يشذ
عن سابقه .

ولكننا نقرأ الجبرتى ، فنجد — إلى جانب التاريخ الصحيح —
العاطفة المصرية الصادقة — ماعدا فترة الحملة الفرنسية — ونجد مصر يا صديقا
مخلصاً يغضب لما يقع على قومه من الأذى ، ويثور ، ويسجل ثورته ،
لما ينالهم من ظلم الأتراك أو المماليك . ويغضب أيضاً لما يجد عند قومه
أو عند بعضهم من التخاذل والجهل والتمسك بالخرافات والأباطيل . أو ما يجد
عندهم من ضعف الخلق . فهو يكتب ، ويسجل ويؤرخ ، ولكنه يوجه
ويوحى ويؤدب ويزجر .

وعند الجبرتى وحده ، دون المؤرخين جميعاً ، نحس أننا نعيش
في بيئة مصرية خالصة . نجد الأسماء ، والأماكن ، والعطفاً والدروب ،
التي لا تزال نرى كثيراً منها ، ونسير في كثير منها في القاهرة وغيرها
من المدن ، وعندما نقرأ له وهو يحدثنا عما جرى من هذه الأسماء ، أو بين
هذه الأماكن ، من حوادث ووقائع ، نجد كأننا عدنا بالتاريخ ، أو عاد
بنا التاريخ ، إلى حيث نعيش بين هذه الأماكن والرجال . ونشهد بأعيننا
وعواطفنا هذه الوقائع والأحداث .

وعنده وحده ، نجد التعابير المصرية الخالصة والأمثال المصرية البحتة ، التي خلقتها البيئة المصرية ، وأنبتتها عواطف قومنا وأخلاقهم ونظرتهم للحياة والأشياء . ونجد عنده وحده تراجم طائفة كبيرة من عامة الناس وأوساطهم . بل سوقتهم . وهي تراجم لها أهمية كبرى في فهم أسرار الحياة المصرية ، ودراسة القومية الذاتية لشعبنا ، وما فيه من خصائص ، وما يؤثر فيه ويوجهه من عواطف ومؤثرات . وكيف يتأثر بها ، وإلى أى مدى يتأثر ، ويحكم .

وعنده كذلك ، نجد تفصيل شيء كثير من هذه الثورات ، أو الهجبات التي هبها شعب مصر في وجه حكامه الظالمين ، من الأتراك والماليك . وتفصيل كثير من هذه الثورات العاتية ، التي ثارها شعبنا على غزائه الإنجليز ، وفاتحى أرضه الفرنسيين . وهو لم يسجل في ذلك مواقف المكافحين من سادة القوم وزعمائهم ، كالسيد عمر مكرم ، والشيخ السادات وغيرهما . بل سجل مواقف رائعة من البذل والبطولة والشجاعة والتضحية ، لقوم من « أولاد البلد » في القاهرة وأبناء البلاد في الأقاليم .

والجبرتي يسجل حوادث الأيام ، على الطريقة التي يعرفها أهل عصرنا اليوم « بالذكرايات » . يقيّد وقائع كل يوم في « جذازات » أو « طيارات » كما يسميها هو . أو « يوميات » ، كما يسميها الناس . وكان يريد أن يراجع

هذه اليوميات ، وينسّقها ليُجعل منها كتاباً يقرأ . ولكنه مات قبل أن يفعل ذلك . ونحن نحمد الله على أنه لم يفعل . لأنه لو راجع ونسّق . لكان من المرجح أن يهمل شيئاً كثيراً مما كتب ، ولقد قدّمنا بذلك أشياء ذات قيمة كبيرة في تاريخنا . وقد انفرد الجبرتي بتدوين فترة منه ، لم يسجلها أحد سواه .

ولكن كتابه جاء ، بهذه الصورة ، أشبه شيء بصحيفة يومية ، تسجل الحوادث الواقعة بلا ترابط ولا توحيد أو تأليف . فترى الرجل أو الحادث ، يذكر في موضع من الكتاب . حسماً تجيء به ، أو بها ، المناسبة . ثم يذكر الرجل ، أو الحادث ، مرة بعد مرة لمناسبة أخرى ، وفي يوم آخر .

لذلك يجد القارئ مشقة بالغة ، وعسراً شديداً ، وعناء ما بعد عناء . في جمع هذه الشوارد ، وربط الحوادث بعضها إلى بعض ، والتأليف بين الوقائع حتى يجعل منها تاريخاً متآلفاً متناسقاً . وقد ظلمت أربع سنوات أقرأ « عجائب الآثار » هذا ، وأراجعه . وأجمع الحوادث والتراجم بعضها إلى بعض . حتى استطعت أن أجعل منها تاريخاً لم أرض عنه كل الرضا . على رغم ما تميت في ذلك من المشقة والعسر والعناء الشديد . وعلى رغم ما لقي كتّابي هذا من التقدير والثناء .

وتاريخ الجبرتي سجل حافل ، رائع ، صادق ، لحوادث السفين التي
 أرّخها . لم يترك جليلا ولا صغيرا رآه أو سمعه ، إلا ذكره . فهو يترجم
 للمالك ، ولآخر أيامهم ورجالهم . ولشيوخ الأزهر . والولاة ، والعلماء ،
 والأشراف ، والتجار . ويترجم لخفير باب زويلة ، والخياطين ، والأولياء ،
 والصناجق ، وخادم النعال في المشهد الحسيني ، وللشعراء والكتّاب .
 وقد سجل صوراً رائعة للحياة الاجتماعية والفكرية في عصره . ثم يترجم
 للشيخ المجذوب الصاحي — وكان حمالاً في دمياط — وللاجانين ، ومدعى
 النبوة ، ويذكر أسعار الغلال ، واللحم ، والسمن ، والذهب ، والتمر ،
 واللبن ، والفحم والخطب . ووقوع الأوبئة والطواعين ، وعمارات المساجد
 والبيوت ، ويذكر القيل الذي دخل القاهرة من الهند ، ويفصل حادث
 « الشيخ صادومة » بما فيه من خروج على ما تواضع عليه الناس من حياء
 وأدب وتحرز : ويروي من شعر الشعراء في عصره قدراً كبيراً مما نسميه
 « بالأدب المكشوف » . ولكنه يصور حياة المجتمع في القاهرة في أصدق
 صورة وأبرعها وأقواها . ويزيد من قيمتها أن حياة هذا المجتمع التي عرفها
 ولا نزال نشهد بعض ظواهرها إلى الآن ، قد بدأت تُغير عليها وتمحوها ظواهرُ
 الحياة الأوربية الحديثة . فأصبحت — وهي قطعة من صميم حياتنا
 وماضيها — نكاد لا نعرفها ولا نتميزها .

وقد سجل الجبرتي ذلك كله وهو يقول : — « إنى لم اخترع شيئاً من تلقاء نفسى . والله المطلع على أمرى وحدسى » ويقول : « لا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار » .

ونحن نستطيع أن نطمئن كل الاطمئنان إلى أمانته العملية والتاريخية .
ويقول بعض مؤرخيه إنه وضع فى آخر حياته كتاباً عن الثورة اليونانية .
وهذا يدلنا على أنه كان يتابع أحداث عصره الخارجية ويسجلها ، كما تابع أدق أحداث عصره وسجل وقائعها وتفصيلاتها وأسرارها .

هذا بعض ما يجده المؤرخ السياسى ، أو القومى ، عند الجبرتي . ويحد مؤرخ الأدب فوق ذلك ، كثيراً من تراجم الشعراء المصريين ، وكثيراً من الشعر المصرى الخالص . والنثر أيضاً . وهو إن لم يكن كله على مستوى رفيع من الشعر والنثر ، فإن فيه شيئاً لا بأس به . وشيئاً يمكن أن يوصف بأنه قارب الجودة . وهذا وذاك كله ، على أى حال ، هو أدب مصر وشعرها فى فترة طويلة من حياتها ، لابد أن يسجل ، وأن يدرس . وأن يعنى به أتمّ عناية وأحفظها . وكل هذا الشعر والنثر ، نستطيع أن نخرج منه بأشياء بالغة القيمة من الناحية الاجتماعية والقومية ، إذا درسناه دراسة علمية دقيقة . نستطيع أن نفيد ذلك حتى مما جمع من الشعر الردى . لأنه يسجل

أحدائنا مصرية ، و يترجم عن عاطفة مصرية ، و يصوّر بيئة مصرية .
أليس من الخير أن نخصص إحدى حاضراتنا المصرية كرسيًا لدراسة
رائد القومية المصرية هذا ؟

لقد لقي الجبرتي في آخر حياته ، إلى أن مات ، من البأساء والشدة
والمرض والحزن شيئاً كثيراً . ولقي ، هو وتاريخه ، بعد موته ، شيئاً كثيراً
أيضاً من الغمط والسنكران والجحود ، لأن الباحثين والمؤرخين كانوا
يتعاشونه وتاريخه ، مداراةً لأسرة محمد علي ، أو خشية من بطشها .

وقد آن الأوان ليعرّف لهذا الرجل حقه ، وليقدر قدره .

مؤرخ شجاع أمين :

كان الجبرتي يدين بولاء واحد ، هو ولاؤه لمصر وحدها . وهذا
سرّ ما نجده من ظاهر التناقض وظاهر الشطط في تدوينه لأحداث عصره
وتسجيله سير العطاء من رجاله . فهو تارة يبدو صديقاً مدافعاً عن المالك ،
يمدحهم ويذكر مآثرهم وأخلاقهم وصفاتهم ، بإكبار وتعظيم .
وتارة نراه يذمهم ويسخط كل السخط على أعمالهم وأخلاقهم وصفاتهم .
وهو مع كراهته القوية الواضحة المتأصلة ل محمد علي ، يسجل له بعض

ما أقدم عليه من عمل صالح قليل كان يرى فيه الجبرتي منفعة لمصر . وهو ، مع صدق تدينه وإيمانه ، يمدح في مناسبات كثيرة ، الفرنسيين وقائدهم نابليون . ولكن هذا كله كان ، كما قلنا ، تناقضاً ظاهرياً فقط . فقد كان الجبرتي المؤرخ يقدس الأحداث والرجال بمقياس الصدق والحقيقة والخير العام . فهو يمدح للماليك ما يصنعون من خير . ويذم لهم ما يقتربون من شر . وكذلك حاله مع الفرنسيين وحالُه في كل ما كتب وسجل . وقد التزم في مقدمة تاريخه أن يكون هذا حاله في كل ما يكتب .

وتاريخه للسكبار من علماء عصره ، وخاصة للشيوخ : الشرفاوى والمهدى والسادات ، أكبر دليل على أنه صدق وعده والتزم بمقاييسه العامة التي لا تميز ولا تتأثر بصداقة ولا خصومة ولا وشيعة . وكذلك تراجمه لسكبار الماليك . وخاصة إبراهيم بك و مراد بك . فقد كان في ذلك كله مصرى القلب والعاطفة ، يزن أعمالهم وتصرفاتهم بمقياس واحد ، هو جدوى هذه الأعمال لمصر ، والإخلاص والنفعة العام في هذه التصرفات . والمقاييس الرفيعة للأخلاق . لذلك كان شديد القسوة على العلماء .

والجبرتي يمدح ، من غير تحفظ ، أحياناً . صنيعاً للفرنسيين مثلاً . ويبدو لنا أن هذا كان شططاً منه وجراً على مقدرات زمنه وشعور المعاصرين . له وتقديرهم للأموال والأشياء . وقد كان كذلك يوم كتبته في واقع الأمر .

ولسكنك بعد التأمل ، وبعد أن تزيل عن هذا الصنيع أو هذه الصنائع حدود الزمان والمكان والبيئة ، تجد الجبرتي على حق في مدحه • وتجد قد جمع إلى التزام الحق ، تلك الشجاعة التي لا يستمسك بها سوى أصحاب الخلق والفضائل من الناس والمؤلفين • وأنه كان مصرى العقل حين مدح وخالف شعور قومه وارتفع عن مستوى معاصريه • لأنه كان يفكر في خير مصر ومستقبل أحوالها وخير أهلها • ولو أنه آلم شعورهم في إبداء رأيه وجبهتهم بصراحته التي لا تراوغ ولا تدارى • ولسكنك عندما تقرأ الجبرتي ، تجد نفسك كأنما لم تخرج من شارع « الغورية » أو « باب الشعرية » أو « الحسينية » . تجد هذه الأحياء بمنازلها وناسها وأحداثها التي تحس أنها وقعت في أمس قريب • وكأنك تقرأ صحيفة تسجل حوادث مصر الحقيقية « الوطنية » وترسم في صورة قوية بارعة صادقة حياة أهلها ومجتمعهم وعواطف قلوبهم وانفعالات نفوسهم حينما وجدوا من كل بيئة وطائفة ، من « أولاد البلد » ، إلى العلماء والماليك والحكام والنساء ومجاوري الأزهر وخدم المساجد و « مجازيب » الأولياء وأبطال الشعب الذين أذاقوا أعداء وطنهم من الفرنسيين والإنجليز والأتراك أشد البلاء وأنكاه •

وتجد عند الجبرتي ما لا تجد عند غيره من الألفاظ والتعابير

والاصطلاحات المصرية الخالصة التي لا زال نسمع وننطق بشيء كثير منها إلى الآن . نجد أنه يتحدث عن « خطتنا » بالصناديقية . وأن النار فيها « رعت ووجت » وأن النيل « انهبط » وسعر القمح « شطّح » وثار « كرشة » أى قام زحام وتدافع . وأن فلانا « قشلان » أى مفلس « ويتحنّج » فى مشيته . وزاد « تنطيط » الأولاد . و « رقرق » له أى تأثر وعطف . وشيء كثير من مثل ذلك . كما نجد فى صفحات كتابه الكثيرة أمثالا مصرية عريقة خالصة لا نسمعا فى غير مصر . ولا فى غير أوساطها الشعبية العريقة وحدها . نجد مثل « قارب شيمحة » الذى يأخذ المليح والمليحة » ونجد أصل قصته ومضربه . كما نجد المثل المصرى « كل الوقايح زلاية » . فأنت فى كل قصة وحادثه وصفحة تحس إحساساً قوياً بتلك الروح المصرية المسيطرة وذلك الطابع الوطنى القاهرى بكل مميزاته وخصائصه . نجد ذلك فى الحادثة والقصة والترجمة والشعر والأسلوب أيضاً كما رأينا .

صورة قرند من الزمن :

سجل الجبرتى حوادث الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر الهجرى ، وأوائل الثالث عشر . وكان فى تدوينه لهذه الحوادث مؤرخا

من الطراز الأول . يشاهد ويرى وبسمع من أبيه وشيوخه وأصدقائه .
ثم يدون ويقيّد يوماً بعد يوم . ولا يكتفى بالمشاهدة والسماع . بل يتجرى
ويبحث ويقابل . ويقصد إلى المساجد والقبور ليراجع ما كتب على
الأبواب والحوائط وشواهد القبور من التواريخ والأسماء والحوادث . حتى
يطمئن إلى ما سمع قبل أن يضة كتبه . وهذه الفترة التي يسجل الجبرتي
تاريخها عما شاهد بنفسه أو سمع عن شيوخه وأصدقائه وأصدقاء أبيه ،
وعما شاهد وراجع من الوثائق والكتب ، تسبقها فترة أخرى روى
أحداثها وأرخ لها بقدر ما مكنته أحواله وظروفه وإمكانات زمنه .

لذلك نجد أنه يؤرخ من حيث وقف ابن إياس « ٦٢٨ هـ » ويذكر
تاريخه بنهاية سنة ١٢٣٦ « ١٨٢٠ م » . وفي هذه الفترة الأخيرة خاصة
نجد صورة مصر فيما يقرب من قرن من الزمان . نجد لها سجلاً حافلاً جامعاً
دقيقاً . لم يترك أمراً جليلاً أو صغيراً إلا ذكره وقيّده بإفاسة وأمانة . يترجم
— كما أشرنا من قبل — للعالم ، أمراء مصر ، ولشيوخ الأزهر ، والولاة
والأشراف والتجار والعلماء وخفير « باب زويلة » والشعراء والخطاطين
والسفاجق « رؤساء الجند وحكام الأقاليم » والحمالين والنساء
والجاذيب والمجانين . ويسجل أسعار الغلال والسمن والتمر والخطب
واللحم والخبز وعمارات المساجد والبيوت والترع ووفاء النيل في كل سنة .

أما الصورة الفريدة التي تجعل لتاريخ الجبوتى منزلة لاتدانيها منزلة ،
فهى تلك التي سجل فيها حياة المجتمع المصرى عامة ، والقاهرة خاصة ،
فقد تضمنت هذه الصورة ذخيرة لاتنفد ولا تقدر قيمتها التاريخية والاجتماعية .
ويستطيع الفنان الموهوب أن يخرج منها عشرات القصص والمسرحيات
ذات الطابع المصرى العريق الصادق الخلاب .

وقد لقي الجبوتى ، فى غير وطنه ولغته ، عناية أحفل مما لقي فيها . ترجم
كتابه إلى الفرنسية ، ونشر فى تسعة أجزاء . تضمنتها ثلاثة مجلدات ،
وطبعت هذه الترجمة فى المطبعة الأميرية بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ، وقام بها
أربعة هم : شفيق بك منصور يكن ، وعبد العزيز بك كحيل ، وجبرائيل
نقولا كحيل بك ، واسكندر عمون افندى . وذكر هؤلاء فى مقدمتهم
لهذه الترجمة أن نوبار باشا هو الذى أوحى إليهم بها ، وأن يعقوب أرتين
باشا كان معيماً لهم على إنجازها ، وطبعها .

وقبل ذلك ترجم ، إلى الفرنسية ، القسم الذى كتبه عن الحملة الفرنسية
على مصر . ترجمه للمسيو كاردان^(١) وطبع هذا القسم ، بالفرنسية ، سنة ١٨٣٨
وهى السنة التى مات فيها المترجم . وبعد وفاة الجبوتى بثلاث عشرة سنة . وقبل

(١) كان مترجماً للفصلية الفرنسية فى مصر ، ومات فى سنة ١٨٣٨ .
(م ٨ — بطولات عربية)

أن يطبع تاريخه ، بالعربية ، بأربعين سنة . كما ترجم هذا القسم نفسه إلى اللغة التركية ، بأمر السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) وجمل عنوانه . « إنقاذ مصر من الفرنسية » وطبع في حياة الجبرتي .

وبقى تاريخ الجبرتي ، بالعربية ، محجوباً ، أو ممنوعاً حتى أذن الخديو توفيق بطبعه . فطبع لأول مرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٨٠ ، ولكن هذا التاريخ الحافل الفريد ظل — مع ذلك — مهملاً محجوداً ، بسبب عسره وصعوبته التي أشرت إليها ، وبسبب عنفه في خصومة محمد علي . وإنني لأجد كثيراً من الرضى والغبطة إذ أرى الباحثين والكتاب والمؤرخين والصحافة والإذاعة ، بدأت تظهر شيئاً من العناية بهذا المؤرخ وتاريخه الذي صور فيه أحداث وطننا ورجاله . وحياته الأدبية والاجتماعية أروع صورة وأصدقها وأوفاه .

وإنني لأرجو أن تزيد وتتضاعف ، العناية به وتاريخه . وسيجد الباحثون ، في سيرته وسيرة أبيه أيضاً ، أشياء ترضى عنها نفوسهم ، كما يجدون في تاريخه ، لو صبروا عليه ، ذخائر وكنوزاً تستحق ما يلقون في سبيلها من مشقة وجهد . ويجدون فيه وحيًا فياضاً لصور وأقاصيص تصور حياتنا المصرية الشعبية تصويراً رائعاً خلافاً .

نهاية ونهاية :

أما النهاية الأولى فهي نهاية كتاب الجبرتي هذا . فقد لقي هذا الكتاب نهاية سعيدة موفقة وتقديراً من الباحثين والعلماء في عصره قل أن لقيها كتاب آخر ، تلقاه الخاصة في حياته بالتقدير حتى اقتبس منه شيخ الإسلام عبد الله الشرفاوي فصلاً كاملاً عن « فقهاء الشافعية » ونسبه لنفسه . وقد رأينا أن قسماً منه ترجم إلى اللغة التركية في حياة الجبرتي وبأمر من السلطان سليم الثالث ، وهو القسم الخاص بالجملة الفرنسية . وأن هذا القسم ترجم إلى اللغة الفرنسية وطبع بعد موت الجبرتي بثلاث عشرة سنة فقط ، ثم ترجم الكتاب كله بعد ذلك إلى الفرنسية في تسعة أجزاء وطبع في نهاية القرن الماضي ، ولقي تقديراً من نوع آخر ولكنه شهادة ما بعدها شهادة على قيمته وخطره . فقد جرع محمد علي مما كتبه الجبرتي في سيرته فحاول أن يترصده ويرشوه — كما ترضى صديقه الشيخ حسن العطار ورشاه — فمرض عليه إمامة قصره في شبوا ، فأبى الشيخ عليه ذلك ، كما يقول بعض مؤرخيه . وأراد محمد علي أن يحبط عمله ، فأمر شيخ الأزهر ، الشيخ محمد العروسي ، بأن يكلف أحد العلماء كتابة تاريخ يعارض به تاريخ الجبرتي . فكلف الشيخ خليل الرجبى الشافعى بأن يكتبه ، فكاتبه

مدحاً كله في محمد على وإشادة بذكوره . وكذلك لقي تاريخ الجبرتي تقديراً من هذا النوع من أسرة محمد على بعد ذلك ، فقد ظل السكتاب محجوباً أو ممنوعاً من الطبع حتى أذن توفيق بطبعه كما رأينا . وقالوا إنه لم يأذن بطبعه إلا بعد أن حذف كثيراً مما سجله في سيرة محمد على .

أما النهاية الثانية فهي نهاية الجبرتي نفسه ، وهي نهاية جديرة بهذا البطل . فقد ذكر كثير من المؤرخين أن محمداً علياً اختاره إماماً ومؤتقاً للصلاة في بلاطه — وإن كان هو لم يذكر ذلك — وقد كان محمد على يرى بذلك إلى غايتين . أولاً أن يستميل إليه هذا المؤرخ ويتراضاه بالمال والقربى ، والثانية أن يرقب أعماله وتصرفاته . ويتحایل حتى يرى أو يسمع شيئاً مما كتب عنه ، وكان الناس يتناقضون أنه ينقده فيما يكتب ، ونقل إليه صهره محمد بك الدفتار ، أن الشيخ حقاً كتب فيه ما لا يرضيه ، وأنه يستطيع أن يجيئ إليه ببعض ذلك .

جبرية محمد على

وفي ليلة ١٧ رمضان « ليلة القدر » من سنة ١٢٣٧ — ٩٨ يونيو ١٨٣٢ م — كان الشيخ عائداً من قصر محمد على في شبرا ، وكان الطريق

بينه وبين القاهرة طويلا غير مأهول، فخرج عليه جماعة من الناس فأمسكوا به وخنقوه، ثم أنزلوه من فوق حماره ورمطوه بقدمي الحمار، فلما أصبح الصباح رآه الناس وعرفوه، وكانت إلى صدره دفاتر مكتوبة «واضطراب» لرصد النجوم والسكواكب، وقال الناس إن قاتليه كانوا من رجال محمد علي، ومن المصادفات الغريبة أن هذا التاريخ هو الذي أسقطت فيه الثورة أسرة محمد علي، بعد مائة وإحدى وثلاثين سنة.

ويقول بعض المؤرخين، الذين يريدون تبرئة محمد علي من قتله، إن الذي قتل هو ابن له كان اسمه «خليل»، ولكن ذلك لا يغني شيئا. فهم يقولون إن الشيخ المؤرخ حزن على ابنه هذا حتى ذهب بصره، ثم توالى عليه الأسقام والأوجاع حتى مات، فهو إذا لم يكن قد قتل بالخنق في رأيهم، فقد قتله الحزن على ولده الذي قتله رجال محمد علي، ونسكون — إذن — أمام جريمتين، لا جريمة واحدة.

وقد أصيب الجبرتي، بموت ابنه الأكبر على هذه الصورة، وهو بين المرض والكبر والضييق، بنازلة حطمت حياته. وكان بيته، كما رأينا من قبل، قد احترق قبل ذلك وحرقت فيه المكتبة العظيمة الحافلة التي التي خلفها أبوه. فترك الكتابة والتأليف، وانقطع عن القراءة، وألح عليه

— ١١٨ —

الحزن ، وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره . وبقي في داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات سنة ١٢٤٩ « ١٨٣٥ » وأعقب بنتاً عاشت من بعده فقيرة مغمورة . وولداً أو ولدين على خلاف بين المؤرخين .

وهكذا كان انتقام محمد على الغادر من بطلينا المصرى الشديد المراس المملح في خصومته وتجريحه وتسجيل آثامه .

ونحمد على له كل العذر — في تقدير عصره وعُرفه — في أن بمطعم كل حيلته وكيدته ليخفى تلك الصورة الحزينة المحزنة التي رسمها له الجبرتي ، والتي سجل فيها ، بأمانة وصدق ، تاريخ الفترة الأولى من حكم محمد على . وتلك المحاولات والمداهنات والآثام التي أقدم عليها واقترفها ليصل إلى الانفراد بحكم مصر وليتزعج السلطان من أيدي المماليك والعثمانيين ، على أن يكون لأهل مصر . فلما انتزعها كان له وحده . ولم يرَ أهل مصر منه إلا القسوة والشر والظلمة .

ولسكن الخصومة الحادة التي نراها عند الجبرتي نحو محمد على ، ليس مردّها عاطفة كراهة شخصية له . بل مردّها أن الجبرتي كان غير موزّع القلب بين وطنه وقومه ، وبين أصحاب السيادة والسلطان فيه . كما كان كثير من كبار عصره .

بطل لم ينل حقه من التكريم :

وقد مرتت ، قبل سنوات ، ذكرى مولد هذا البطل المصرى العظيم ، لمرور مائتى سنة عليها . وأرى أننا لم نوفه حقه ولا بعض حقه فى هذه الذكرى .

وأعتقد أن الفرصة ما تزال قائمة ، بل هى قائمة ملحة فى إلزام جمهوريتنا العربية ، وشعبها أن تمجد ذكراه وتحب سيرته ، لعلها أن تعوض عليه وعلى من بقى من أسرته بعض ما لقي من شقاء ومحنة فى عهد أسرة محمد على ، فقد كان ، كما رأينا ، أعنف خصومه وأشجعهم وأثبتهم فى هذه الخصومة ، وأصبرهم على بلائها .

هو بطل من أبطال مصر الذين كاثخوا الظلم والطاغوت ، ولعله كان أولهم جميعاً فى العصر الحديث . وهو كذلك مؤرخ من أعظم المؤرخين وأصدقهم . وقد كان ، من غير شك ، أسبغهم جميعاً فى تسجيل تاريخنا المصرى الخالص بكل أمانة وبراعة ومقدرة وإخلاص . حتى سمى بحق : « مؤرخ القومية المصرية » .

وكل دعوة للإشادة بالجبرتي . والتذكير به . وبالأحرى لدراسة

تاريخه . هي دعوة من أكرم الدعوات وأبرتها بمصر وقوميتها وعروبته .
وخاصة في عهد الثورة .

وليس برّ هذه الدعوة آتياً من الذاهية العاطفية وحدها . فإن الجبرتي
يعتبر مثلاً من أشرف الأمثلة للرجولة وقوة العقيدة وصلابة الإيمان
وشرف الكفاح في سبيل الرأي والحق حتى الموت . كان صديقاً حميماً
لكبار المالكة ، وكذلك كان أبوه من قبله أثيراً عند علي بك الكبير ،
ومحمد بك أبو الذهب وأمثالهم ، ولكن المؤرخ الأمين ، لم يعفهم
وأمثالهم من النقد ، وتسجيل الأخطاء والآثام التي كانت تقع منهم .
وكان في استطاعته أن يكسب صداقة محمد علي ، وأن يذال من ماله
وجاهه ما يشاء . كما فعل صديقه الشيخ حسن العطار وغيره من كبار
العلماء ، ولكنه سجل الشرور التي ارتكبتها محمد علي في أول حكمه .
وذكر في سيرته وسيرة ابنه إبراهيم عجائب من الظلم والغدر والقسوة تمار
فيها العقول . وظل يسجل ذلك ويدونه حتى مات . مات قتيلاً بيد رجال
محمد علي — كما يقول بعض المؤرخين — أو مات كمدأ وحزناً على ابنه
الشاب خليل ، الذي قتله رجال محمد علي باعتراف مؤرخيه ومؤرخي
« العائلة الخديوية الفخيمة » .

وقد وجدتُ — وأنا أدرس تاريخ الجبرتي وتاريخ مصر في القرن

— ١٢١ —

الثامن عشر — أن كتابه «عجائب الآثار» هو المصدر الوحيد الذى استطعت الاعتماد عليه فى تسجيل السنوات السبع عشرة الأولى من حكم محمد على . المصدر الوحيد الذى يذكر بأمانة وتفصيل كثيراً من الشرور والفجور ، الذى مارسه محمد على وإبراهيم فى حكم مصر . وقد سجل ذلك مما شهدته بنفسه . أو سمعه من الحديثين الثقات .

وما حفظه لنا الجبرتى من صورة الحياة الاجتماعية والفكرية لوطننا فى القرن الثامن عشر . لا نجد له نظيراً على الإطلاق . فى كتاب آخر . لا فى كنه ولا كيفه . وكذلك ما كتبه عن السنوات الثلاث التى أقامها نابليون وجيشه فى مصر . وأثر ذلك فى حياة المجتمع المصرى .

لقد كان الجبرتى أول التأثيرين على محمد على وأسرته ، ولقى فى ذلك نحن الحياة كلها ، حتى الموت . ولقى كتابه من المصادرة والنشيت شيئاً كثيراً من عهد محمد على حتى عهد توفيق . فمن أجدر من صاحب هذه السيرة وهذا التاريخ بأن يكرمه عهد الثورة التى أنهت حكم هذه الأسرة واسقطتها من حساب الوطن ومن حساب الزمن . . . ؟

بطل تحت قلعة الجبل

[بعض المؤلفين وبعض النقاد يعترض على كتابة المسرحية باللغة العامية ، وبعض المؤلفين والنقاد يرى أن المسرحية تمثل وتشاهد ، ولكنها لا تقرأ . ولكني كتبت هذه المسرحية بالعامية ، وأنشرها لتقرأ . كتجربة] .

الأشــخاص

- المعلم حجاج : رجل في حدود الأربعين ، قوى تبدو عليه
مظاهر الشجاعة والثقة بالنفس ، نظيف الثياب .
- المعلم خايل : رجل كبير السن ، هادئ ، تبدو على وجهه
مظاهر الطيبة والإخلاص واليقظة .
- المعلم مسعود : فيه ثورة هادئة ، ولكنها دائماً متابرة .
- المعلم نصر : فيه ذكاء وحيلة وحيلة .
- الشيخ دردير : شيخ كبير السن له سمت ووقار .
- الشيخ شعراوي : شيخ متحمس متوسط السن .
- المعلم عصفور : شاب شديد التحمس مندفع .
- الحاج شابي السكاكيني : جبان منافق متردد .
- عوض : خفيرو جاسوس للأغما .

الفصل الأول

[دكان خضري على ناصية شارع ضيق بجى الرفاعى
بالقاهرة فى القرن الثامن عشر ، له بابان ، يجلس
داخل الدكان ، على دكة ، رجل ضخم الجسم ، نظيف
التياب ، فيه هدوء ومهابة ، وثقة بالنفس .
يقف إلى جانبه ثلاثة رجال من معاونيه . والجميع
يرقبون الصبية وهم يدخلون من الباب الآخر إلى الدكان
أقفاس الخضر من الكوسة ، والطماطم ، والملوخية
وغيرها]

الوقت : فى الصباح المبكر .

يدخل أحد المعاونين وهو يقول :

صباح الخير يا معلم حجاج ، صباح النور ياربالة . ماشاء
الله ، نحمد ربنا على خير ، أنا شايف السنة دى الوارد
من الأرياف كتير . والخضار صاحب ، وخير ربنا كتير .

المعلم خليل : والله يا جماعة الوارد كتير ، والدنيا بخير ، حتى قلوب الناس

لسة برضه ربنا بمنعشى منها الخير . وأنا جى دلوقت للمعلم
 حجاج ، فتّ على بيت اخونا المرحوم الحاج امبابى ، قلت
 أمر على أولاده مساكين أطمئن على حالهم . أمهم مسكينة .
 مات راجلها وساب لها سبع عيال مفيش حدمهم بيتكسب
 قرش . وكنت جايب للأولاد شمامتين ، قلت آخذ لهم
 زخزين حاجة . والله يا جماعة أنا فرحت ، وحدث ربنا
 لما شفت الأولاد لابسين نضيف ، وصحتهم كويسة ، وإن
 أبوه مامتش . وقالت لى أمهم إن الدنيا بخير . وإن الولد
 الصغير أخذه الحاج نوار العطار فى دكانه ، يعلمه ويدّله كل
 يوم خمسة بارة . والحاج نوار ، الله يبارك له ، يدّى الولد كل
 آخر نهار بقجة لبقية العيال . يوم فيها قمح ، ويوم فول ،
 ويوم لوبية ناشفة ولآرز ، وبعض أيام رطلين لحمة ، والله
 يا جماعة فرحت قد إيه لما لقيت ولاد أخونا الحاج امبابى
 مستورين والحمد لله ، أصحاب أبوهم ما بينسهومش أبداً .

المعلم مسعود : الدنيا بخير يا جماعة ، وقلوب الناس مليانة رحمة . بس .

— ١٢٩ —

الراجل اللّی قاعد فوق دا ، ومش راضی ينزل داراح
ينزَع الرحمة من قلوب الناس ، ويوقّعها في بعض .

المعلم نصر : قصدك مين . . ؟ الباشا اللّی في القاعة ، ! . . . ؟

المعلم مسعود : أبوه . هو فيه غيره . مفیش يا جماعة حدّ قادر عليه . . . ؟
أمال احنا رجّاله ازّاي . . ؟ والله دا عيب علينا .
(يدخل شيخ معمم كبير السن له سمت ووقار)

المعلم نصر : أهو سيدنا الشيخ دردير هو اللّی عارف الأخبار . ويحكيلنا
اللّی حصل من الراجل دا ، اللّی عمّال ييظلم في الناس ،
وما يتّيش ربنا .

المعلم حجاج : يا ولد يانص . كرسي وقهوة لسيدنا الشيخ .
(يجلس الشيخ إلى جوار المعلم حجاج)

المعلم خليل : إيو لله يا سيدنا الشيخ . قول لنا إيه اللّی عملوه المشايخ مع
الباشا في القلعة .

الشيخ دردير : والله اللّی حصل إن أسيادنا المشايخ والسيد عمر مكرم ،
لما رفض الباشا إنه ينزل بناء عن طلبهم ، اجتمعوا في بيت
(م ٩ — بطولات عربية)

القاضي واتفقوا على إنهم يتخلصوا منه بالقوة . ويحرضوا
الناس عليه . والباشا بعث جواسيسه يعرفوا المشايخ بيعملوا
إيه . ولما بلغوه إن بيت القاضي مليان بالعلماء والناس ،
والعالم كله معاهم . أرسل نائبه يدعوهم للحضور عنده .
ولسكنهم رفضوا . وخرج نايب الباشا والناس وراه تهمل ،
وتشتم وترميه بالحجارة وهو خايف منهم ليقتلوه . وبعد
كده بيوم اجتمع المشايخ مرة ثانية وقرروا إنهم يخلعوا
الباشا . وذهب بعضهم له يبلغه القرار . فغضب عليهم جداً
وقال لهم أنا متولّى من قبل السلطان ولا أعزل بأمر
الفلاحين .

المعلم مسعود : الله أكبر . الفلاحين يعنى اللي هم احنا . . !

المعلم خليل : وبعدين إيه اللي جرى ياسيدنا الشيخ دردير . . !

بعد كده المشايخ كلهم غضبوا ، والناس كلهم اجتمعوا
جهة سيدنا الحسين والأزهر وحارة الروم والخرنفش ،
وبيت القاضي مبقاش سايعهم والشوارع اللي حواليه . حتى
القاضي خاف وبعث لخورشيد باشا إن عنده أكثر من

— ١٣١ —

أربعين ألف . كلهم عازين بحار بوه . وإن أحسن له ينزل
من القلعة . واديني تركت المشايخ في الأزهر بيأمروا الناس
يستعدوا للحرب ، وكلهم بيتهضروا معاهم . لأجل يمحسروا
الباشا في القلعة ويحاربوه .

المعلم خليل : ربنا يصلح الحال ويروق بالناس .

(يدخل شيخ متوسط السن يبدو عليه النشاط والقوة)

الشيخ دردير : أهو الشيخ شعراوى كل ليلة يصلى العشا في الحسين ولازم
كان هناك . يحكى اللى حصل بعد كده امبارح .

الشيخ شعراوى : اللى حصل بين الباشا والفلاحين . . ؟

الجميع : (ماعدا الشيخ دردير) أيوه احكى لنا .

الشيخ شعراوى : حصل إن المشايخ والسيد عمر ومعاظم المعلم جرجس الجوهري
اتفقوا على حصار القلعة . والناس كلهم بينزلوا على بركة
الأزبكية بينادقهم ونبايتهم . واللى معندوش يبيع أى حاجة
ويتسلح . كل الخلق من الحسينية والعطوف والأزهر

— ١٣٢ —

والصليبة والقرافة يبتجمعوا في بركة الأزبكية وزى
ما يأمرهم المشايخ يعملوا . حتى المشايخ متسلحين .

المعلم مسعود : أمال احنا قاعدين ليه . جرى إيه يامعلم حجاج . . ؟ دانت
كبيرنا وشيخ انخضرية كلهم . شهم وشجاع وراجل .
ساكت ليه . . ؟

(يقوم الشيخ دردير يتبعه المعلم نصر والشيخ شعراوى)

المعلم حجاج : (يفاديه) ياسيدنا الشيخ دردير .

(وينفرد به جانبا وهو يقول له)

: أنا راجيك فى حاجة . فى طريقتك بيت المرحوم امبابى .
من غير تكليف توصل لأولاده الأمانة دى . ويعطيه
شيئا من المال .

الشيخ دردير : الله يكرمك يامعلم حجاج ويوسع عليك . والله أنا كمان
عاوز أشوفهم .

(يخرج الجميع ماعدا المعلم مسعود . فيأخذ المعلم حجاج
إلى داخل المحل ويقول له)

: بتقول ان احنا ساكتين . مين قال لك ان احنا ساكتين ؟

— ١٢٣ —

المعلم مسعود : وأنا فين أَمال .. ؟ دانا راجلك وبايع روجي وحياتي في
الراجل اللي اسمه الباشا ... !

المعلم حجاج : انت عايز تشغل معانا . ومستعد تموت ... ؟

المعلم مسعود : وهو فيه أحسن من إن الواحد يموت شهيد . وتنسكتب له
الجنة . ويدافع عن شرفه وشرف بلده .

المعلم حجاج : معاك كام راجل عاوزين يموتوا ... شوف كده وتأكّد
منهم وتعالى لى ليلة السبت ، بعد ثلاث أيام .

الفصل الثاني

[قلعة القاهرة . الوقت بعد الغروب . القلعة
مغلقة الأبواب ومن أبراجها يرى بعض الجنود
الأتراك في أيديهم البنادق . وعلى سورها يظهر عدد
من المدافع موجهة فوهاتنا نحو القاهرة .

حول القلعة يقف بعض الحراس المصريين
في جماعات قليلة متباعدة في أيديهم البنادق وهم رقبون
الطريق إلى القلعة]

أحد الحراس المصريين يحدث زميله : الفرّج قرّب ... كلها يومين والباشا
النّحّس خورشيد يسلم ويخرج من القلعة .

الحارس الآخر : ربك كريم . يمكن ولا حتى يومين ، والجوع والعطش
حيثلّوه غصب عنه يخرج . قرّب على خمسين يوم دلوقت
مقطوع عنه كل حاجة .

الآخر : كل شدة وتهون . إحنا كان لازم نستحمل السهر والبرد
علشان مافيش حاجة أبداً تدخل القلعة .

[يشاهد الحراس فتاتين في ثياب الفلاحات تنجهان إلى القلعة وهن يحملن على رأسهن شيئاً . أحد الجنود يرفع بندقيته وهو يصيح محدثاً زميله] :

البنيتين دول معاهم حاجات عايزين يدخلوا بيها القلعة .. !

زميلهم : سيمهم ماكش دعوة بيهم .

الآخر : دول لازم معاهم مئة والا حاجة يبيعوها للعساكر بتوع خورشيد جوّة القلعة .

زميله : سيمهم بقولك . إحنا عارفين ومرتبين كل حاجة . وهما

داخلين القلعة زى ما انت فاهم نزل بندقيتك وانتبه للطريق .

فيه حد خارج من باب القلعة .. ؟ بص كده كويس .. !

[يفتح باب القلعة ويقفل بسرعة . ويظهر على بابها جنديان

تركيان يسيران ببطء ، يقترب الحراس من الجنديين ويحاول

أحدهم أن يصوب عليهما الرصاص ، فيقول له زميله]

: متضرّ بش .. ! دول من غير سلاح . استنّه لما نشوف

عايزين إيه وخارجين ليه .

[يقترب الحراس من الجنديين فيقول هؤلاء لهم ، في لهجة

تركية ، ويبدو في صوتهما الضعف والخوف]

— ١٣٦ —

: مَيَّة . . ! مَيَّة يا مسلمين . . !

[يضحك الحراس المصريون ويقول لها واحد منهم]

: الجوع والعطش خلاكم تعرفوا إنا مسلمين ؟ ! لما كنتم
تقتلوا فينا وتعزوا النسوان من هدومها وسيغتها وتضر بونا
بالسكر باج ، مكناش مسلمين . ؟ !

[يهم أحد الحراس بأن يضرب جنديا من الأتراك على رأسه
بكعب بندقيته ، فيمنعه زميله ويقول لها]

: إحنا ندياكم مية على شرط تقولوا لنا الباشا بتاعكم جوة ازي
حاله ورجالته .

[يبدو على الجنديين أنها لم يفهما الكلام ، ويزيد خوفهما .
ثم يقولان مرة أخرى ، وهما لا يكادان يستطيعان الوقوف]

: مَيَّة . . . احنا مسلمين ...

[أحد الحراس يقول لزملائه]

: نموتهم ونخلص عليهم .

: لا . أبدا ، دول لازم يروحوا للعالم حجاج بسألهم ويصترف
فيهم هو والسيد عمر مكرم ، السيد عمر يعرف يتفاهم معاهم .

يشير لزميله قائلا

آخر

— ١٢٧ —

:إنت وبدوى تاخدوهم حالاً للمعلم حججاج ورا القلعة . إنت عارف هوّ فین .

[يسير الحارسان وقد أمسكا الجنديين التركيين يقصدان بهما الجهة الخلفية للقلعة : حارس من الحراس يلوّح عن بعد بمصباح يحركه حركات خاصة فيراه بقية الحراس] .

أحد الحراس : واحد من إخواننا فوق الجبل بيدى لنا إشارة ، لازم عنده حاجة بيدلغ عنها .

زميله : أنا رايح له بسرعة أشوف الحكاية .

[بعد أن يسير خطوات قليلة يقابله أحد زملائه مسرعاً ، ثم يقبل الاثنان على بقية الحراس حيث يقول القادم]

: جماعة كبيرة من الرجال والجمال جيّة من بعيد علشان تدخل القلعة . جالنا خبر دلوقت إنها فى الطريق ، الجبال أكثر من ستين جمل محمّلة ذخيرة وأكل ومية .

أحد الحراس للرسول القادم : إرجع انت حالا لزملائك ، وانت يا حسنين تروح مع شحاته للمعلم حججاج بسرعة تبلاغوه الخبر .

[تسمع حركة وأصوات قادمة من بعيد ، يتمهل حسنين
وزميله في السير قليلاً ثم يقولان]

: دا صوت المعلم حجاج يا جماعة . ثم يستقبل الجميع القادمين .
ويسارعون بإبلاغهم الخبر .

[المعلم حجاج ينظّم رجاله بسرعة ويفرقهم جماعات ويأمر كل
جماعة بالتوجه إلى مكان معين حول القلعة ويقول للجميع]

: الجبال دى مستحيل تدخل القلعة . دى من نصيبنا إحنا ،
إذا دخل منها جمل واحد راح تعبنا كله وانتصر خورشيد
الظالم علينا . توكلّوا على الله يارجاله . أنا مع جماعتى على
رأس الجبل . ثم يقول : الجماعة الى سايقين الجبال راح
يفرقوا أنفسهم ، كل جماعة منكم عليها تسلك منهم الى يحاول
يوصل للقلعة من طريقها . ولأزم تمسكها : الذخيرة وكل.
حاجة توصل لنا سليمة . . . توكلّنا على الله .

[تتفرق الجماعات كل في طريق . ويسرع المعلم حجاج إلى رأس.
الجبل . ويبقى بعض الحراس لمراقبة الطريق]

الفصل الثالث

[شارع من شوارع القاهرة الضيقة ، والوقت
ليلا ، يسير جماعة من الناس يتقدمهم بنحو خمسة
أمتار شخص آخر]

أحد الجماعة : مين اللى ماشى قدّام دا فى نور الفانوس . . ؟ يا معلم شمعة
يا ترى هوّه . . يا معلم شمعة .

[يلتفت الشخص المتقدم ثمّ يجيب . أيو الله . ثمّ يقف
حتى يلحق به الآخرون]

الشيخ دردير : إيه اللى جابك هنا . مصلّتش ليه فى الرفاعى يا معلم شمعة .
زىّ عادتك . . ؟

المعلم شمعة : والله هفّ علىّ أزور السيدة عائشة . واصلّى فيها العِشا
والتراويح . والحمد لله صليت .

الشيخ دردير : طيب ياريت تقضى السهرة معانا وتستريح شوية . واهم
ولادنا واخواننا معانا نسهر سوا .

— ١٤٠ —

[يتقدم للسلام على المعلم شمعة رفقاء الشيخ دردير وهم :
المعلم خليل ، والشيخ شعراوي ، والمعلم عصفور ، والحاج شلبي
السكاكيني]

المعلم شمعة : والله قعدة حلوة على بركة الله .

[يصل الجميع إلى منزل الشيخ دردير ثم يدخلون ، منظره
إلى جانب الباب الخارجى فيها أربع كنبات كل واحدة عليها
شلتة كبيرة ، وواحدة تزيد عليها فروة يجلس عليها الشيخ ،
ويجلس الآخرون]

المعلم خليل : داحنا بختينا عال . اللى شُفنا سيدنا الشيخ دردير الليسة
وحتحصل لنا البركة

الجميع : أبوه الله صحيح .
الشيخ دردير : بارك الله فيكم .

المعلم شمعة : يا سيدنا الشيخ داننا بركتنا كلنا ، ربنا ما يحرمنا منك .
هو لولا أسيادنا العلماء . . . كانت بقت الناس لها قيمة .

المعلم مسعود : صحيح ربنا بيدنظر للناس ببركة العلم والمشايخ . لكن الناس
يظهر إن مبةقأهاش قيمة ، دلوقت . وأسيادنا المشايخ مش
عارف راضيين عن كده والآإيه .

— ١٤١ —

الشيخ شعراوي: والله أظن محدّث يرضى عن كده أبدأ، هما لازم بيعمولهم ترتيب . علشان هما اللي جابو الراجل ده .

(يسمع صوت من الخارج قريب من النافذة)

يا معلم شمعة . . . عامر يا معلم شمعة . يظهر إن عندك ضيوف . دايمًا عامر .

المعلم شمعه : أيوه عندي سيدنا الشيخ دردير وبعض الإخوان . الدنيا صيف وسهرة رمضان حاوّه .

(يبعد صاحب الصوت . ثم يقطع السكون صوت الشيخ دردير يقول : [.
مين دا يا معلم

المعلم شمعة : دا الواد البصّاص عوض . حاكم الباشا محمد على عامل على كل شارع بصاص . الاسم انه يحرس الناس . وهو يوصل أخبار للـ كـتـخـدا . والله يا جماعة مبقيناش عارفين نعيش في البلد . ياريت نسيبها زى ماسابها المعلم حجاج . نفد بجلده .
المعلم عصفور : والله لو كان فيه عدل في البلد . كان المعلم حجاج بقى كبير

ومستيط في أيام الباشا ده . دا هوّا اللّى حارب الباشا
خورشيد ونزله من القلعة .

الشيخ شعراوى: صحيح والله يا جماعة . لولا حجاج ماكانش حد قدر ينزل
الباشا الظالم ده من القلعة . دانا شفته بعينى بيدجّج فى عسكر
الباشا زى الغنم . كان زى مَنّتو عارفين . شجاع وجسمه
جامد كله عافية وقوة .

المعلم شمعة : لولا المعلم حجاج كان خطّنا ده اتهدل . قريب من القلعة
والعساكر طالعين نازلين بيئذوا الناس ويقتلوهم . لاسكن هو
كان واقف لهم . ومرّه سمع عن جماعة حاصروهم العساكر
فى حى المظفر فطار لهم برجالته . وفضل يحارب لغاية ماقتل
اكثر من نصّهم ، وهربوا بقية العساكر وطلع بتوع المظفر
من الحصار .

المعلم عصقور : دانا حاربت معاه . كان المعلم مسعود ، الله يرحمه ، صاحبي
بالروح وزى أخويا . وقال لى ليلة تحب تموت شهيد ؟.. ولما
فهمت منه الحكاية . قلت له أنا معاك زى متقول . ورحت
معاه أنا وجدعان كتير للمعلم حجاج بالليل ، وكان واقف

مع رجالته يراقب القلعة من جهة الحبل . كان خورشيد باشا
 بقى له أكثر من شهرين محصور فيها ، وكان سيدنا السيد
 عمر مكرم مكلف المعلم حجاج بإنه يحطّ عينه وحسّه على
 القلعة . علشان ما فيش مية ولا ذخيرة ولا أكل يطلع للبasha .
 وفي يوم من الأيام . شفنا ناس كتير وجمال من بعيد
 طالعة القلعة . فقام المعلم حجاج واحنا كلنا معاه وقسمنا
 أقسام وقطعنا الطريق على اللي طالعين وحاربناهم وقتلنا منهم
 كتير . والباقي هربوا وتركوا ستين جمل تحميلين ذخيرة . لما
 سمع محمد على الحسكايه دى . وسمع على حجاج وشجاعته
 بعث له جماعة من عساكره يحاربوا تحت رياسته . وفي واقعة
 يوم الجمل دى انتقل المسلم مسعود لرحمة الله شهيد ، بعدما
 حارب حرب رجّاله .

المعلم خليل : والله المعلم مسعود رجل بيعجبّه ربنا ، طالب بلسانه الشهادة
 وربنا نولّاه ، هنّيّاله الجنة

الشيخ دردير : أيو الله يا ولادنا . مكانش حد فاكر كده أبدا . مين كان
 يجى فى باله إن محمد على باشا لما يتولّى . يعمل كده فى الناس
 حتى المعلم حجاج اللي ساعده مساعدة يعلم بها الناس كلهم...!

المعلم شمعة : دى حتى بنته زينب والبنت الى كان متبقيها زى ما انتو عارفين كان بيدخلهم القلعة على إنهم بيبيعو لبن وميه لعساكر خورشيد وهما فى الحقيقة بيحسوا عليه ويوصلوا أخباره لأبوم المعلم حجاج . ومرة واحد من عساكر خورشيد كسر دارع البنت نفيسة لأنه كان بيعا كسها فضر به قلم .

المعلم عصفور : أنا شفت بعينى ، يوم ماجه فرمان لمحمد على يكون والى مصر . المعلم حجاج ماشى قدام الموكب ، موكب هایل ، وهو رافع سيفه وجنبه المعلم شمعة ده . وفضلوا ماشيين قدام الرقة لما دخلو بيها بيت محمد على فى الأزبكية . والأدهى خورشيد باشا كانت مدافعه وقتها عماله تضرب على البلد وعلى الناس . وكان المعلم حجاج والمعلم شمعة ماشيين زى الأسود . المعلم شمعة كان شيخ الجزائرين قد الدنيا .

المعلم شمعة : الى ربنا قدرنا عليه عملناه ، والمعلم حجاج كان بطل صحيح ولما شاف الباشا محمد على بيزيد ظلمه يوم بعد يوم ساب له البلد ، وبرضه خاف على نفسه .

[ثم يتوجه بالكلام للشيخ دردير]

إلا سيدنا الشيخ . إيه رأى أسيادنا العلماء فى الباشا ده وأعماله .

الحاج شلبي السكاكيني : يا جماعة من خاف سلم .
لامؤاخذه ياسيدنا الشيخ ، الحيطان لها ودان :

الشيخ شعر اوى : ودان إيه وسنان إيه يا حاج شلبي . دا الباشاوات دكهم كان
حالهم أرحم . مشغناش حد زى ده ، على الأقل كانوا باشاوات
كبار صحيح . ولهم مقام . لسن ده حنة شاويش محدش عارف
جى منين ، ضحك على الناس وقال لهم حا احكم بالعدل والشرع
وادحنا شايفين ، والله حرام علينا لو نسكت على كده .
مفنيش كام سنة استولى يعمل كده فى الناس ... !

[يسمع من الخارج صوت البصاص وهو يقول]

يا معلم شمعة يظهر إن السمرة حلّيت ، والضيوف أحباب ،
دافيه خبر كويس حقوله لكم . المعلم حجاج رجع بيته النهارده .
المعلم شمعة : ماتيجى ياخى تشرب حاجة ساقعة . وتحكينا . والله
خبر كويس .

الحاج شلبي السكاكيني : (بصوت مرتفع) والله الباشا بتاعنا ده قلبه
طيب وكله خير ، لازم عفا عن حجاج .
(م ١٠ بطولات عربية)

— ١٤٦ —

المعلم شمة : يامى عوض سيدنا الشيخ دردير بيقولك تعالى جوّه .

عوض البصاص : لا . . . معلمش . سلام عليكم ياسيدنا الشيخ . افتحوالى الشباك بس وأنا اتسكلم معاكم .

(المعلم شمة : يفتح له الشباك) .

عوض : صحیح النهاردة المعلم حججاج رجع بيته . المشايخ والسيد عمر مكرم كتموا فيه الباشا وقالوا له الراجل كبر وتعب وما بقاش منه خوف . والباشا قال لهم دا راجل ساعدنا كثير وأنا بحبه . وأنا بتهجّب بيسيد البلد ليه ويغيب الغيبة الطويلة دى ، والمشايخ بعتموا له يحى . واهو دلوقت فى بيته . ماهو مالقيش فائدة من العند ، بيقولوا راح للألفى . أهو مات الألفى . وصفت الدنيا لمحد على .

(يسمع صوت مناد من بعيد . فيترك عوض الشباك ويسير فى الطريق) .

الشيخ دردير : أنا عايز يا جماعة أزور المعلم حججاج .

المعلم عصفور : والله ياريت نروح نزوره كلنا ونهنّيه .

(يقترب صوت المنادى حتى يسمعه الجميع وهو يقول)

ٖ يكون فى علمكم يا أهل البلد . الحاضر يعلم الغائب . يا أهل
السيدة عائشة ، والرفاعى والقلعة . إن حضرة الباشا محمد على
عفا عن المعلم حجاج وأعطاها الأمان يرجع بيته ويقعد فى
دكانه زى ما كان . وبقي شيخ الخضرية زى زمان .
الحاضر يعلم الغائب . حضرة الباشا أعطى المعلم حجاج الأمان
يرجع بيته ويقعد فى دكان شيخ الخضرية زى ما كان) .

الشيخ شعراوى : الحمد لله . المعلم حجاج بعد يمجى سبع سنين يرجع بيته
وعزوته ، ويرمضن بين عياله .. !

المعلم شمة : دى زيارة سيدنا الشيخ دردير كلها خير وبركة وسرور .

الشيخ دردير : الله يبارك فيك يا معلم شمة .

المعلم خليل : بعد إذن سيدنا الشيخ دردير . ياللاَّ بيدنا كلنا نזור المعلم
حجاج ونشوفه ونهنئه .

(يقف الشيخ دردير ثم يخرج ، وخلفه الجميع)
وهو يقول

: حصلت البركة يا جماعة . حصلت البركة يا معلم شمة .

الفصل الرابع

(الشيخ دردير والشيخ شعراوى يسيران وقت العصر فيمران على محل جزارة المعلم شمعة . وهو يقفله وينهيا للإصراف . وعندما يمران به لا يلتفتان له . فيسرع باللاحاق بها ثم يسلك بيد الشيخ شعراوى وهو يقول) :

المعلم شمعة : يعنى ما فيش سلام عليكم ولا حاجة . . ؟
الشيخ دردير : لا مؤاخذه يا معلم شمعة . والله يا بنى أنا عنيت مش شايف بيها وفكرى تايه .

المعلم شمعة : خلاص كل سنة وسيدنا الشيخ بخير وعافية . كلها عشرة اتناشر يوم ويخلص رمضان . هو السنة دى صعب صحیح فى الحر .

الشيخ دردير : والله يا معلم شمعة مش من رمضان ولا من الصيام . دا على قدر المشقة يكون الثواب ، هو انت معرفتش اللى حصل للمعلم حجاج .

— ١٤٩ —

المعلم شمعة : لا والله . خير ان شاء الله . عتيان والا إيه . . ؟

المعلم شعراوى : بصوت منخفض . . . ياريت . . ما قتله الظالم . . !

المعلم شمعة : لا حول ولا قوة إلا بالله (موجهاً كلامه للشيخ دردير) .
صحيح ياسيدنا الشيخ الكلام ده . . . ؟

(يقترب الجميع من بيت المعلم شمعة . وقبل أن يصلوا إليه يقول
الشيخ دردير) .

الشيخ دردير : يا معلم شمعة . أنا عاوز أستريح عندك شوية .

المعلم شمعة : يا ألف أهلا وسهلا ونفطر سوا .

(يدخل الثلاثة منزل المعلم شمعة . حيث يجلسون فى منظره
مظلمة مغلقة النوافذ)

المعلم شمعة : أظن الضامة والرطوبة كده أحسن للحر . والا تأمر ياسيدنا
الشيخ أفتح الشبابيك . . ؟

الشيخ دردير : لأ كده أحسن ، خليههم .

المعلم شمعة : إيه يا شيخ شعراوى الحكاية الفظيعة دى . . ؟

— ١٥٠ —

الشيخ شعراوي: دا سيدنا الشيخ دردير هو الى سمع بنفسه .

الشيخ دردير : والله أنا لى عادة فى بعض ليالى رمضان أصلى الفجر فى
سيدنا الحسين .

الشيخ دردير :
والعلم شمهه :
رضى الله عنه

الشيخ دردير : والليلة اللي فاتت حبيبت أصلى فيه . فقلت لابنى عبدالرحمن
من قبل السحور يحضر لى الحمار بتاعى . وييجى معاياه نصلى
الفجر سوا . وصلينا والحمد لله وقبل ما نخرج من المقام
قرب منى واحد من أولادنا وقال لى إنه وهو جى من
يتهم فى الجمالية بعد السحور . شاف عند السبيل الى فى
الشارع جماعة من العسكر مكتفين واحد ويعلّقه بجبل
من رقبتة على السبيل . فهو برضه خاف ومارضيش يقف
كثير . وبعدين قبل ما يبعد سمع واحد من العسكر
بيقول :

خلاص ... الرجل خلص . وبعدين جرى واحد بسرعة جهة

واحد راكب فرس وهو يقول : — خلاص يا حضرة
الأغا . حجاج خالصنا منه .

فأنا في الحق شكيت . يا ترى المعلم حجاج .. ؟ محنا عارفين
محمد علي خاين وغدار . رجعت قعدت في المقام قرئت جزئين
قرآن . وقلت يا عبد الرحمن قوم نروح بقا . وأنا لسه بامشي
أول خطوة عند باب سيدنا الحسين . والناس داخله للصلا
والزيارة والدعا . سمعنا المنادي بيقول :

« يا أهل البلد يكون في علمكم . إن حضرة الباشا شق
الليلة حجاج الخضرى على سبيل الجمالية . وأمر بفضل
معلق هناك يوم بليلة . علشان غيره يعتبر . دا جزاء اللي
يخالف حضرة الباشا . ويعصى على أمره » .
(ثم يقول بعد لحظة صمت ، بصوت متهدج) .

الشيخ دردير : الله يرحمك يا معلم حجاج . لك نعيم الجنة .
» شعراى : ربنا ينزل علينا رحمته . ويلطف بعباده . والله دا هو اللي
يستاهل الشق .

(يقف الشيخ دردير ويتبعه الشيخ شعراوى متيئين للخروج
ثم يقف المعلم شمة متاثلا وهو يقول والدموع تسكاد
تخفق صوته) .

— ١٥٢ —

العلم شجرة : يشنقوه كده ظلم ياربى !.. وفى شهر رمضان !.. ربنا
ينتقم من الظالم .

[شخصية كل من المعلم حجاج والمعلم شجرة حقيقية . وجوهر
الحوادث فى هذه المسرحية ثابت تاريخياً . وكان قتل حجاج
بأمر محمد على ، ليلة ١٧ رمضان سنة ١٢٣٦ (أغسطس ١٨١٧) .]

مجاهد من الغرب

[إلى أبطال الجزائر المجاهدين ، الذين هم في
الحياة المعاصرة . المثل الأول للشرف والنضحية
والسكافح الوطنية]

كان الأمير محمد السكيلائي ، أو السيد محمد المهدي ، يقيم في قصره
في مدينة درنة بطرابلس الغرب . وكان « الغرب » هذا ، أو بلاد المغرب
وطناً عربياً إسلامياً واحداً لا تفرق بينه حدود . ولا تفصل بين أرضه
حواجز أو سدود . كانت طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وطناً
عربياً إسلامياً يسير في أرضه السائر من حدود مصر إلى أن يلتقي بأمواج
المحيط ، فيستبدل أهلاً بأهل ، وإخواناً بإخوان . وطنهم جميعاً : « العربية »
ودينهم : « الإسلام » .

وكانت حياة الأمير السكيلائي هذا هيئته ميسرة رخيصة كريمة ؛ يقيم
صلاته ، ويرعى شؤون أتباعه ومعتقديه ؛ متمتعاً بمكائمه ومنزلاته من الجاه
والحبة والسيادة والتكريم ، كما يسكون الأمير والسيد والإمام . وظل

يعيش بين قومه متمتعاً بمكان الصدارة والإمارة وكرامة العلماء والسادة والشرفاء ، ومحبة أصحاب الخلق والدين والمروءة والبر ؛ حتى ذاع في بلاد المغرب نبأ أزعج أهلها وقض مضاجعهم ، وأثار غضب الأمير وحرك سخطه . وغيظه ونحوته ؛ فقد علم أهل المغرب أن جيش الفرنسيين قد طرق مدينة الإسكندرية ، وأن أهلها حاربهم ما استطاعوا ، وبذلوا من دماءهم وأرواحهم واسترخصوها قبل أن يهزموا ؛ ولكن جيش نابليون ، أو بونابرتة ، غلبهم ودخل المدينة فأقام فيها واستولى على مديرية البحيرة وهو في طريقه إلى القاهرة ، وأن المصريين جميعاً يبادرون لنصرتهم والدفاع عن حرمة وطنهم وكرامة أرضهم وشرفها وقديسيّتها .

ولم يستطع الأمير محمد أن يهدأ بعد هذا الذي سمع ، فقد كانت نفسه تتميز من الألم والسخط والثورة ، ورأى الناس أميرهم وإمامهم يجمع أمره ، ويجمع ما استطاع أن يحمل من أمواله ، ويقوم بينهم داعياً للجهاد والنصرة والحرب ، وكان خطيباً فصيحاً لسنّاً ؛ استطاع في وقت قصير أن يجمع حوله عواطف قومه وقلوبهم ، وأن يسلّموا إليه قيادتهم ليسير بهم إلى مصر لحرب هؤلاء الفرنسيين .

ترك الأمير قصره كما ترك هؤلاء المجاهدون بيوتهم وأولادهم متوجهين .

صوب الشرق ؛ صوب مصر الجاهدة ، رغم ما بينها وبينهم من المشقات والأهوال والمعاناة .

قطعوا في مسيرهم هذا ، الليالي والأيام ، يجدّون في السير ويصبرون على هجير الصحراء وحرقها وعطشها ليمادروا لفصرة إخوانهم . وظلوا على حالهم هذه الليالي والأيام الطوال ، وأميرهم كلما لقي قوماً دعاهم إلى الجهاد والمشاركة في الحرب فيلبّون ويبادرون .

ثم نزل الأمير وقومُه « واحدة سيوة » بعد المشقة والجهد . وهناك رأوا أن يستريحوا فيها أياماً بعد ما لقوا من مشقة هذا السير الطويل .

وفي هذه الواحة انتمت بهم جماعة كبيرة من الناس تعرّف للأمير أمرهم ، فعلم أنهم قافلة من حجاج أهل المغرب ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته وقوة شخصيته وصدق إيمانه وإخلاص يقينه ، حتى أسلموا إليه أمرهم ، وقبلوا — مسرورين فرحين — أن يسبروا معه إلى مصر ، وأن يشاركوه شرف ما يسعى إليه من الجهاد ؛ وكان عددهم أربعمائة من الرجال الأشداء الأقوياء الشجعان .

أصبح للأمير بهذه القافلة وبين سكان معه من قبل جيش كبير ؛ سار به مسرعاً حتى نزل مدينة دمنهور . وكان الفرنسيون استولوا عليها وتركوا فيها حامية ترهب أهلها وتخيفهم وتستبدّ فيهم ، وترقب الطريق إليها ومنها ؛

حتى لا يتصل المجاهدون من أهل الاسكندرية والبحيرة بإخوانهم
في القاهرة .

وكان أهل المدينة وماجاورها من البلاد والقرى يهاجمون الحامية كلما
وجدوا لذلك سبيلا ، ويقتلون أو يأسرون من استطاعوا أن يقتلوا ويأسروا
من جنودها . ولكن الناس أصبحوا يوماً فلم يجدوا لهذه الحامية أثراً ، ولم
يبق في مكانها سلاح ولا رجل ؛ بل وجدوا في مكانها آثار معركة وحطامها
وأشلاء قتلاها . وعرف القوم بعد قليل أن مجاهداً من العرب اسمه الأمير
محمد قدم لنصرتهم ، وأنه هو وجنوده هم الذين هاجموا الحامية فأبادوها ،
وقتلوا جميع رجالها فلم يبق منهم أحد ، واستولوا على مدافعهم وسلاحهم .

* * *

واشتهر اسم الأمير وجيشه بعد هذا الهجوم ، وتطوع للجهاد معه
كثيرون من الناس ، مصريين وغير مصريين ؛ حتى بلغ جيشه أربعة
آلاف . ويقول بعض المؤرخين سبعة آلاف .

ورأى الفرنسيون أن لا بد لهم من القضاء على هذا الخطر الجديد قبل
أن يستفحل أمره ويشتمل ساعده أكثر من ذلك . فساقوا إليه جيشاً كبيراً
لم يستطع أن يهزمه ، وانتصر عليه جيش الأمير المجاهد ، ولكن هذا

— ١٥٧ —

النصر الذي أحرزه جيش المجاهدين كان عالى الثمن . فقد فقد منه عدد كبير ، كان أكثره من الفلاحين الذين لا يسكادون يحملون سلاحاً ، بل كانوا يحاربون بفؤوسهم وعصيهم .

فلما بلغ أمر المهدي هذا المبلغ من الخطر . قام لحره قائدان من أبرع القواد الفرنسيين وأعظمهم شجاعة وأبرعهم دراية بفنون القتال والحرب ، وكلاهما يقود جيشاً عظيماً . وكان جيش المهدي قد بلغ عدده خمسة عشر ألفاً من المشاة ، وأربعة آلاف من الفرسان .

وجرت بين الجيشين معركة عنيفة طاحنة ، أبدى فيها الأمير وجيشه من أهل المغرب ومن المصريين أعظم ضروب الشجاعة والبراعة والفداء والصبر . ومع أنهم فقدوا — كما يقول المؤرخون — ألفين من الرجال ، فقد تغلبوا على الفرنسيين حتى ردّوهم وأجلوهم عن مواقعهم وساقوهم أمامهم مهزومين .

ولسكن الفرنسيين أسرعوا فاجلبوا كثيراً من السلاح والرجال ، وجرت بينهم وبين الأمير وجيشه معارك دامية ، كانت الغلبة فيها على جيش المجاهدين والأمير .

ثم دخل الفرنسيون مرة أخرى مدينة دمنهور ففعلوا بها وبأهلها أشد .

الأفاعيل وأفحشها . قتلوا رجالها ونساءها وأطفالها ، ثم أحرقوها حتى بدت أطلالاً وحجارة سوداً ، وفرضوا على أهلها — بعد ذلك — المغارم الثقيلة الفادحة .

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم ليصلوا إلى هذا الأمير المجاهد فيأسروه أويقتلوه ، ولكنه غاب عنهم في بطن الصحراء فلم يدركوه . وكان ، قبل أن يهزم ، قد طهر مناطق فسيحة — من الرحمانية إلى رشيد — من الفرنسيين .

واستطاع الأمير محمد أن يصل إلى القاهرة . ولم يركن فيها إلى الراحة والأمن بعد هذا الكفاح الرائع الذي قام به ، بل أخذ يبذل كل ما يملك من جهد وموهبة وعزم ، ليشترك المصريين جهادهم وحربهم مرة أخرى . ونجد فيما روى المؤرخون ، وبخاصة الجبرتي ، من تفصيل وقائع الثورة التي قام بها — للمرة الثانية — أهل القاهرة ضدّ الفرنسيين . نجد فيما رواه المؤرخون ذكراً لهذا الأمير المجاهد ، ونجد له نصيباً وجهداً في الكفاح .

* * *

وقد التقى هذا الأمير بقائد من قواد الحملة الإنجليزية بعد ذلك على مصر لمشاركة العثمانيين في حرب نابليون وجيشه .

لقى القائد الإنجليزي الأمير المجاهد فقال إنه التقى بالحملة الإنجليزية عند الرحانية ، ثم سار معها حتى بلغ القاهرة ودخلها^(١) .
ثم وصف القائد الإنجليزي الأمير المجاهد فقال :

« لم يكن هذا الرجل شخصاً عادياً ، بل كان أميراً من أمراء المغرب : اسمه : مولاي محمد ، مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب . وكان يركب جواداً عربياً من أجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض . ويلبس عباءة في نصاعة بياضها أيضاً ، موشاة بالذهب ، تتدلى منها على كتفيه عقود من الحرير الأحمر^(٢) » .

ويقول المؤرخون الفرنسيون ورجال الحملة الفرنسية إن الأمير المجاهد قتل في حربهم ، ولكن شهادة الكولونيل الإنجليزي روبرت ولسون هذا بأنه التقى بالأمير بعد انتهاء الحرب ، ووصفه له ، قرينة — إن لم تكن دليلاً — على عدم صدق ذلك ، وإنكار لما زعم رجال الحملة الفرنسية من أنهم طاردوه حتى الصحراء ، ثم قتلوه على حدودها .

وكأنما كان ذلك أمنية لم تتموها . فلم يفالوها ، فادعوها أو تخيلوها .

(١) ذكر ذلك الكولونيل « روبرت توماس ولسون » من رجال الحملة الإنجليزية .

(٢) كتاب « فتح مصر الحديث » : للرحوم الأستاذ أحمد حافظ عوض ،

وبعد فترة غير بعيدة من هذا الزمن ، قام رجلان آخران بقسط غير مجهود في الجهاد والكفاح أيضاً لإخراج الإنجليز من مصر : هما شقيقان كانا من أكبر تجار القاهرة وأوسعهم ثروة؛ اسمهما أحمد وسلامة النجارى، وهما غير مصريين وطفلاً. واعلمهما - كما تدل بعض الدلائل - من أبناء المغرب أيضاً .

سمع هذان الأخوان نبأ قدوم الحملة الإنجليزية الغادرة إلى مصر ، في سنة ١٨٠٧ م وسمعا عن ذلك الموقف الرائع المشرف الذى وقفته أمامها مدينة رشيد ، فأرادا أن يسهما في هذا الشرف ، وأن يعينا المجاهدين في حربهم . فجمع الأخوان مائة من البدو والمغاربة ، وتسكفلا بتسليحهم ، والإنفاق عليهم في جميع حاجاتهم .

وتم للأخوين تجهيز هذه الفرقة وتسليحها ، ثم سارا معها إلى رشيد ، حيث اشترك جنودها في الحرب مع أهل المدينة وفي مدافعة الإنجليز عنها . وكان الأخوان يشاركان بذاتهم في الحرب أيضاً، وتطوعاً فوق ذلك بالإنفاق على المحتاجين من الحار بين ؛ غير جيشهما الصغير ،

ولما تم النصر لأهل رشيد ، وهزم الإنجليز فيها وفي غيرها ، فرّق هذان الأخوان جميع ما غنما في الحرب ، وفرّقا جميع ما معهما من مال . فرّقا هذا

— ١٦١ —

وذاك على من خرج لمطاردة الإنجليز ، وجعله جائزة لكل من يثمة بهم
في فرارهم بعد الهزيمة .

* * *

وإني وأنا أكتب حديث هذا الأمير المجاهد وهذين الأخوين
المجاهدين أيضاً ، أجد في خاطري ذكريات ، وفي قلمي أحاسيس .

ذكريات خاطري أن هذا المجاهد الذي قدم من الغرب كانت —
وما تزال — بلاده وبلادي ووطناً واحداً في الشعور والعاطفة والإحساس .
كما كانت وما تزال البلاد العربية كلها ؛ وأن رائداً آخر من رواد الثقافة
والمعرفة ، هو ابن خلدون ، قدم من بلاد الغرب هذه إلى مصر ، واستقر
فيها شطراً طويلاً من عمره حتى مات ؛ فلم يشعر أنه غادر وطنه ، ولا
فارق أهله .

وكذلك قدم من أقصى هذه البلاد رائد آخر من رواد الثقافة والمعرفة
هو ابن بطوطة فشهد هذه البلاد ، ووصفها ، وأقام فيها ؛ فلم يشعر أنه
غادر وطنه ، ولا فارق أهله .

وكذلك فعل كثيرون غيرهما من العلماء والمتصوفة والتجار والزائرين
(م ١١ — بطولات عربية)

— ١٩٣ —

والحجّاج وطلبة العلم في الأزهر ؛ وأنّ آلافاً من القوافل ، وآلافاً من الناس في مئاتٍ من السنين ، سلّكوا هذا الطريق الذي سلّكه هذا الأمير المجاهد إلى مصر ، وإلى بيت الله الحرام ، فلم تتمّعهم حدود ، ولم تردّهم قيود ، ولم تقف في طريقهم سدود ؛ مهما طوّروا من البلاد ، وقطعوا من الآماد .

* * *

وإحساس قاي ، هو هذا الذي يحسّه كل عربي وكل منصفٍ في العالم كله ، نحو هذا الوطن المسكّاف المجاهد الصابر من بلاد الغرب : الجزائر .

وقد ترجمنا نحن في هذا الوطن العربي ، هذا الإحساس إلى مشاركة وعمل ؛ فعطف الشعب كلّهُ وأعان وبذل . وسُيِّعين ويبذل ما دام هذا الوطن في حاجة إلى بذل ، وحتى تتحقّق له أكرم الغايات .

* * *

وعندما نذكر قصة هذا المجاهد من الغرب ، وهذين الشقيقتين أيضاً ، فنحن نحسّ أننا نردّ يداً تقدّمت ، ونقضي ديناً سلّف . كما نحسّ أننا نبني

للحاضر : ونشيد مستقبل هذه الأمة العربية التي يوحد بينها من قديم
الزمن شعور واحد ، تؤكد أحداث التاريخ ، وتوثقه قلوب الناس وعواطفهم
كما توثقه مصالحهم ، ونشيد بنياناً لعلنا نراه ، أو يراه أبناؤنا وأحفادنا :
هو بنيان هذا الوطن العربي الموحد ؛ بنياناً يقوم على واقع الأمر وحقيقته
وأساسه ، كما هو قائم على الشائج والإحساس والشعور والضائر والعواطف .

الفضل ما سيهدتُ به الأعداء

كانت ثورات أهل القاهرة القويّة العارمة المتلاحقة سبباً من أكبر الأسباب لخروج نابليون وجنوده من مصر ، رغم ما أوقفوا بأهلها من المظالم والمغارم ، وكانت ثورات أهل المدن والقرى والريف أيضاً من أكبر الأسباب لهذا الذى أكره عليه الفرنسيون صاغرين . كما كانت هذه الثورات وتلك من أعظم ما لقيَ الفرنسيون من الشدّة والحمة فى بلادنا وفى البلاد التى أبتليت باحتلالهم .

وهناك شهادة رجل محايد ، بل هو صاحب هوىٍّ وميل للفرنسيين ، نعرف منها إلى أى حدّ كانت هذه الثورات سبباً من أسباب الشقاء الذى لقيته جنود فرنسا الباغية . وكيف كان وقع هذه الثورات ، بل الحروب المتصلة ، فى نفوس هؤلاء الجنود .

هذا الرجل المحاميد ، بل العدو المخاصم ، هو : « نقولا الترك » ^(١) أو « المعلم نقولا » . وقد كان نقولا هذا ، كما نرى في ترجمته وسيرته ، مع الفرنسيين بقلبه وهواه وعاطفته ، فهو يبالغ بأسلوبه المسيجّع في الإشادة

(١) نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمني ، يؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد في سنة ١٧٦٣ في دير القمر ببلنات . وأصل أسرته من بوناليّ القسطنطينية ، ولذلك سمّي « بالترك » ، أي التركي . هاجرت أسرته إلى جبل الدروز واعتنقت المذهب السكاوليكي . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الأمير بشير الشهابي الكبير . فأرسله الأمير إلى مصر قبيل الحملة الفرنسية عليها ليطمئنه على أخبارها . ويقول بعض المؤرخين . إنه أقام في دمياط ثلاث سنين — المدة التي أقامها الفرنسيون في مصر — وكان يرأس الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحالته . لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا إلى دير القمر ، وكفّ بصره في آخر عمره . فكان يعمل على بنته مايريد أن يكتب . ومات في سنة ١٨٢٨ .

وقد وضم نقولا كتابه : « ذكر تملك جمهور فرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع في دار الطباعة السلطانية بباريس سنة ١٨٣٩ وطبع معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية في مصر » ترجمه مسيو ديغرانج لميزه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة في سنة ١٩٥٠ بتعليقات لمسيو جاستون فييت . وهذه الطبعة تزيد عن الأولى ، وتنتهي حوادثها إلى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد علي .

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له في كتابه شعر مضحك في مدح نابليون والإشادة بكفائته وشجاعته ، وشعر في رثاء الجرنال كليبر . لذلك تجد لشهادته قيمة كبيرة ، فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحالته ، واستبسالهم في هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهنّين عليه الاعتراف بها .

ولقولا الترك ديوان شعر باللغة العربية طبعته حكومة الجمهورية اللبنانية في سنة ١٩٤٩ في مجموعة : « نصوص ووثائق تاريخية » وأشرفه على طبعه الأستاذ فؤاد أفرام البستاني .

بعقريّة نابليون ونبوغه ، وفي شجاعة الفرنسيين ، ولكن هذه العاطفة لم تحلّ بينه وبين أن يذكر ما قام به شعب مصر من الكفاح الجيد المشرف في مقاومة نابليون ، وما لقي هذا الشعب من المحن القاسية ، من الجنود الفرنسيين ، ثم ما لقيه هؤلاء الجنود ، وقوّادهم ، من مقاومة وعناء ، جعلاً بقاءهم في مصر أمراً مستحيلاً ، وهو يشهد هذه الشهادة لشعب مصر مصحوبةً بكثير من المارارة والحسرة ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

* * *

يقول نقولاً إن مقاومة الشعب المصري للفرنسيين كانت تشمل البلاد كلها ، وقد « تظاهر المصريون ، على الطائفة الفرنسية ، وقامت الأربع أقاليم المصرية ، القبلية . والبحرية ، والغربية ، والشرقية ، وكان في كل وقت يقع انحصام بينهم وبين الجنراليتين . - أي الفرنسيين - من الأربع الجهات المصرية ، وتمزق البلاد ، وتهلك العباد » .

وذكر أن أهل المنصورة قاموا على الحامية الفرنسية في يوم خميس - وكان السوق الأسبوعي يقوم فيها في ذلك اليوم - فحاربوها حتى هرب من بقي حياً منها إلى البحر - أي النيل - ولكنهم لم يستطيعوا السفر فيه إلى القاهرة ، لأن أهل المنصورة وقفوا لهم ومنعواهم . فلما نزل جنود الحامية إلى البر يريدون الهرب حاربهم المصريون حتى أفنّوهم . ولما علم الجنرال ديزيه نبأ إفناء هذه الحامية وجّه حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي إلى

المنصورة ، ولـسـكـنـه وـجـد من الحـكـمـة ، ألا يحارب أهلها ، وفرض عليهم ضريبة من المال .

وكذلك قام أهل دمياط على حاميتها ، بزعامة شيخ إقليم المنزلة الشيخ حسن طوبار . فانفق أهلها مع أهل القرى المجاورة على التجمع في قرية « الشعرا » . ثم هجموا ليلاً على الحامية الفرنسية في دمياط . ولـسـكـن الحامية ، بعد حرب غير متكافئة القوى ، تغلبت على الوطنيين . وهاجر الشيخ حسن طوبار إلى الشام .

وأشار نقولاً أيضاً إلى الثورة التي قامت في الصعيد ضد الاحتلال الفرنسي ، وكان قائدها الشيخ محمد الجيلاى يقود جيشاً من الثوار تعدادهم سبعة آلاف . ويقول إنه قامت في دمنهور ثورة في شهر الحرم سنة ١٢١٢هـ - يوليو ١٧٩٩ - يقودها هذا المجاهد ، فصار إليها حاكم الإسكندرية وقائد حاميتها وحارب الثوار حتى هزمهم بعد جهد ، ولـسـكـنـه لم يتمكن من أسر قائد الثورة^(١) .

وفي العريش قام المصريون على حاميتها الفرنسية وأحرقوها داخل القلعة التي كانت تتحصن فيها ، واستولوا على القلعة .

(١) انظر فصل : « مجاهد من الغرب » ، الفصل السابق من هذا الكتاب .

أما الأمثلة التي ذكرها نقولا عن شجاعة المصريين، وروحهم المعنوية العالية ، فأكتفى من ذلك بمثل واحد ، هو الشيخ محمد كريم حاكم الإسكندرية ، فقد وقعت في يد نابليون رسائل منه إلى مراد بك يطلب فيها حضوره إلى الإسكندرية ، ويعلم استعدادَه لتسليم قلعتها إليه .

فحكم نابليون بإعدامه . وتشفع الأعيان والعلماء في الشيخ فلم يقبل منهم ولم يقبل الشيخ أن يفتدوه بمبلغ كبير من المال .

ولما سار الجند الفرنسيون بالشيخ إلى ساحة الإعدام ، كان ينادى في الجوع الحريفة ، الخاشعة ، التي تقف في طريقه : « الجهاد . الجهاد . . اليوم ي وغداً بكم . . ! »^(١) . أقتلوا الفرنسيين قبل أن يقتلوكم ، كما يقتلونني الآن .

(١) ترجمة السيد محمد كريم وجهاده ص ١١٨ — ١٢١ من كتابنا : دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر ، الجزء ٣ — الطبعة الثانية .

الشيخ هيمس أبو نضارة

السيف أصدق إنباء آمن السكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

هكذا يقول أبو تمام في قصيدته البديعة عن فتح عمورية .

ولكن بعض السكتب وبعض الأقلام ، قد تكون أحداً وقعاً ،
وأقوى أثراً من السيف . والقلمُ ، في كلّ حال ، لا بد أن يمهّد للسيف ،
فيهيئ له النفوس ويملاء القلوب ويُنجد العواطف والمشاعر ، ويصوّر الظلم
فيثير الغضب ويحرك الثورة . وإذا كان صاحب القلم مؤمناً بفكرته ، مخلصاً
في قصده ، ممتازاً في نشاطه وثقافته ، محيطاً بخصائص عصره . كان قلمه
أوقع من السيف وأقوى أثراً من الحديد والنار ، وأشدّ فتكاً من
المتفجرات والقنابل .

وقد نرى في بطولاتنا العربية رجالاً ونساءً جاهدوا وقاتلوا بالسيف
والنار ، وكانت لهم بذلك الكرامةُ والحمدَةُ والشهادة . وفي هذا الفصل
نقصّ سيرة مجاهد لم يحمل سيفاً ولا ناراً ، ومع ذلك كان أثر قلمه أقوى

من النار والحديد . وخشيَ الظالمونَ قلمه هذا وخافوا منه على عروشهم فأخرجوه من وطنه مصر حتى مات عنها غريباً . ولكنّه ، في غربته البعيدة ، كان يرسل عليهم من قلمه لهيباً وُحْماً تحرقهم وتزعزع عروشهم تلك .

مائة وعشرون سنة مرت على مولد رائد من أوائل الرواد وأكثريهم إخلاصاً وبعدهم نشاطاً في تاريخ مصر الحديث . رائد يضعه نشاطه وإخلاصه ، وتضامنه وتضحياته ومثابرته في صفّ الرجال الذين بنّوا صرح الوطن المصري وأقاموا الحياة المصرية التي يشهد الجيلُ المعاصر نواحيَ متعددة منها ، يضعه إخلاصه ونشاطه وعمله في صفّ على مبارك وعبد الرحمن السكاكبي وعبد الله النديم ومصطفى كامل . ويزيد « أبونضارة » عنهم بتعدد أوجه النشاط السياسي والثقافي والصحفي الذي كان يباشره ويحسّنه ، أو يبلغ فيه درجة التفوق والإجادة والتبريز .

مصري مكافح ولد في حيّ « الموسكى » بالقاهرة ومات في باريس . وبين هذه وتلك نجد حياة حافلة بالنشاط والكفاح والتضحية والمثالية . والتجرّد للفكرة : فكرة الحرية والتقدم والسعي الدائب الثابر لاستقلال مصر وتخليصها من المستبدين الظالمين ، وخاصة حكم إسماعيل .

حياته الشخصية كذلك مليئة بالغرائب والمتناقضات ، وتجمع أسرته بين الأديان الثلاثة الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام . كان أبواه يهوديين وكان هو مسلماً . وتزوج مسيحية كاثوليكية وكان أولاده منها مسيحيين . ولذلك جَمَعَ الخصاص البارزة لطائفته التي نبتت منها أسرته ، وخصائص غيرهم من الذين تنفَّق بمقافتهم أو دخل في دينهم .

في سنة ١٨٣٩ حملت أمّه وقلْبُها يضطرب بالخوف والرهبة ، فقد ولدت قبله أربعة أطفال ماتوا واحداً بعد واحد . لم يعيش منهم أحد أكثر من أسابيع قليلة . وكانت للأمّ صديقة تحبها وتستمتع لرأيها ، فنصحت لها صديقتها هذه أن تقصد مسجد الشيخ عبد الوهاب الشعراي فتزور شيخه وتلمس منه البركة والدعاء لجنينها . وباركها الشيخ ودعا لها وبشرها بأنها ستلد ولداً . وطلب إليها الشيخ أن تهب ولداها لخدمة الإسلام . وولدت الأم طفلاً لم يعارض أبوه في أن يهبه لها وهبته أمه حيث طلب إليها الشيخ . فكان أول شيء تعلمه حين صار صبياً أن حفظ القرآن . فلما بلغ الثالثة عشرة كان ينظم الشعر . وفي الخامسة والعشرين أجاد ثمانى لغات حديثاً وكتابة . وعندما بلغ الأربعين كان - كما يقول هو - يقول مؤرخوه - يجيد من اللغات اثنتى عشرة هي : العربية والعبرية والتركية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والأسبانية والروسية والجرية والبولونية .

وكان يعلم هذه اللغات لأبناء الخديوى وأبناء الطبقة الراقية. كما يعلمهم الموسيقى. وكما كان يعلم أبناء الطبقة الراقية اللغات والموسيقى ، كان يعمل لتثبيته الشعب وتثقيفه عن طريق المسرح والصحافة . بدأ نشاطه فى المسرح بدايةً أرسنقراطية أيضاً . فألف مسرحية باللغة الإيطالية مثلت على المسارح الإيطالية . ثم ألف مسرحيتين بعدها فكان نجاحه فيها جميعاً نجاحاً كبيراً . وفى سنة ١٨٦٩ « وهو فى سن الثلاثين » أنشأ مسرحاً عربياً لقي من أول يوم نجاحاً عظيماً . حضر حفل افتتاحه ثلاثة آلاف متفرج ، كان منهم رجال حاشية إسماعيل والوزراء . ومثلت فيه مسرحية هزلية قصيرة . وكان الممثلون فى فرقته كلهم من الرجال ، حتى الذين يقومون بأدوار النساء ، وبلغ نجاح « أبو نصارة » فى فرقته تلك شأواً بعيداً حتى طلب إليه إسماعيل إقامة حفلة ساهرة كبرى شهدها بنفسه وأعجب بها ، وبدأ الناس فى مصر يضعونه فى مثل منزلة مولير — أبو المسرح فى فرنسا — فسموه : « مولير مصر » .

وكانت مسرحياته ترمى إلى غايات سياسية وإصلاحية . لذلك بدأت الدسائسُ تعمل ضده عند إسماعيل حتى أمر بوقف نشاطه وأغلق مسرحه بعد سنتين من إنشائه . مع أن إسماعيل كان يعجب به ، وكلفه ببعض الرسائل والمهام قام بها فى أوروبا وقدّم عنها تقريراً لإسماعيل . إتجه بعد ذلك للنشاط الثقافى ، فأسس الجمعيات الأدبية التى بدأت .

تتحدث عن الإصلاح ومفاسد الحكم وحقوق الشعب . وطبيعى أن يثير ذلك إسماعيل ويضاعف من سخطه عليه . حتى رأى أنه لا يستطيع أن يباشر نشاطاً . ولم تُمَد الصحف المصرية تتحدث عنه أو تنشر له شيئاً أو تشير إليه . فقرر أن ينشئ لنفسه صحفاً . وكانت بدايته فى الصحافة أيضاً شبيهة ببدايته فى المسرح : أرسنة قراطية . فانشأ صحيفة بالفرنسية يبدو من اسمها نفسه منهجها فى النقد والإزعاج . حيث سماها : « البعوضة » واتبعها بأخرى باللغة الإيطالية . وأصدر بعد ذلك صحيفة بثمانى لغات اختار لها اسماً مصرئياً فسكها هو : « الثرثار المصرى » ، صدرت فى سنة ١٨٧٨ . وأصدر بعد هذه الصحف الأرسنة قراطية فى جملتها الصحيفة التى عرف بها والتي نالت نجاحاً صحفياً وسياسياً كبيراً وهى صحيفة « أبونضارة » . وكان إصداره لهذه الصحيفة بالاتفاق مع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده . وكان الثائر الأول ، الشيخ جمال الدين ، يعرف قدر « أبونضارة » ويصادقه ويشجعه ويثنى عليه . وقد كتب مقالين فى صحيفته .

دام نشاط « أبونضارة » فى الصحافة من هذا التاريخ إلى نهاية حياته . مع نواح أخرى فى التأليف والمسرح . وكانت صحيفته تلك ، وما أصدره بعدها فى مصر وفى فرنسا ، صحفاً هزلية ، وهى أول صحف من هذا النوع عرفها الشرق . ولكن فكاهتها لم تكن هزلً التسلية والسخرى والإضحاك لإرضاء النفوس الفارغة . بل كانت فكاهة السخرية بالحاكم وتنبيه الشعب لحقه فى الحياة

والحرية وإثارته على ظلم حكامه بأسلوب لاذع فيكـه يستخدم فيه اللغة العامية التي يخاطب بها الشعب . فكان لأسلوبه هذا أبلغ الأثر في النفوس إذ ينبع من صميم مشاعره ، ويستخدم أمثاله وقصصه ، ويستمد من ثقافته وتاريخه ، ويلتقى مع مداركه ، ويصل عن طريق هذا كله إلى قرارة نفسه .

كان يثير السخرية بشخصية «شيخ الحارة» وإسرافه وبذخه وجهله . وما يوقعه بالناس — سكان الحارة — من العسف والظلم وما يلزم تصرفاته من الجهل . وكان «شيخ الحارة» رمزاً لإسماعيل . يستطيع أن يدرك ذلك كل قارئ لصحفه . وكذلك يتناول في صحفه الحياة الاجتماعية في الشرق مطالباً بإصلاح الفاسد منها . وكذلك الأمر في مسرحياته الهزلية التي تناولت أساليب الحكم وفساد الحياة في المجتمع الشرقي لعهد .

ولكن المداراة والتستر والتخفي ، لم تكن كافية لستر أهداف هذه الصحف والمسرحيات . فغضب إسماعيل على صاحبها وأمر بوقف صحفه وإبعاده عن مصر ، فسافر إلى باريس في سنة ١٨٧٨ حيث أقام بقية حياته . وفي باريس ظل يصدر صحفاً تتسم بنفس الطابع ، وتنهج النهج نفسه ، وتهدف إلى نفس الغايات التحررية والإصلاحية التي كانت تهدف إليها صحفه ومسرحياته في مصر . وكان يختار أسماء الصحف التي يصدرها في

باريس بنفس الروح المصرية الشعبية التي يختار بها أسماء صحفهِ وتمثيلياته . في مصر . ففي باريس صدرت له « أبو نضارة » أيضا ، و « النضارات المصرية » و « أبو صفارة » و « أبو زمارة » و « الحاوي » و « الوطني المصري » وغيرها . ويضع على رأس صفحاتها الأولى طائفة من أسمائه وألقابه . فهو : الخوجا جيمس سانو ، وأبو نضارة ، والشيخ جيمس أبو نضارة المصري ، والشيخ أبو نضارة زرقاء ، والشيخ ج . أبو نضارة . الخ . ويستخدم في الإشارة إلى شخصيات عصره ألقاباً مصرية معتبرة تثير السخرية . فيشير إلى توفيق باسم : تلفيق ، وإلى نوبار باشا باسم : غوبار ، وإلى شريف باشا باسم : أبو أشرف ، ورياض : أبو رياضة . ويشير إلى توفيق أحياناً بوصف : ابن فرعون . واللورد كرومر بسميه : كرنب . أما عرابي فيشير إليه بلقب : سيد العرب . ويشير إلى الفلاح المصري بوصف : أبو الغلب ، وكنتشر : كوشنكار .

وكانت له ، إلى جانب هذا النشاط المسرحي والصحفي ، نواحي نشاط أخرى متباينة . له كتب في الرحلات ، وذكريات نثرية وشعرية ، وترجمة لحياته ، وترجمة تقسم كبير من القرآن باللغة الإنجليزية . عدا كثير من القصص والمسرحيات بالعربية والفرنسية والإيطالية . وظل يتابع هذا النشاط حتى مات في سنة ١٩١٢ .

وكان يقول إن له ، إلى جانب رسالته الوطنية لتحرير مصر ، رسالة أخرى مقدسة : هي مكافحة الأباطيل التي كانت تفرق بين المسلمين والمسيحيين . وكان ، وهو دون الخامسة عشرة ، يقرأ القرآن بالعربية والتوراة بالعبرية والإنجيل بالإنجليزية . وقام بمجهود في تعريف الأدب العربي والإسلام إلى العالم الأوربي ، فترجم شعرا عربيا إلى الإيطالية ، ونشر دراسات بالإنجليزية عن الأدب العربي . ووضع تمثيلات بالإيطالية عن الحياة المصرية مثلها المسارح الإيطالية بنجاح .

كما كان يضع على رأس بعض صحفه التي أصدرها في باريس أسما : لسان حال الأمة المصرية الحرة ، وشعارا آخر هو : مصر للمصريين . واعلمه ، على ما أعتقد ، أول من صاغ هذا التعبير وأعلن هذا الشعار الذي بقي حيا متداولاً إلى عهد قريب .

ومن سيرة هذا البطل نعرف أن أهل الأديان الثلاثة الكبرى في وطننا كانوا جميعاً شركاء في كفاح الظلم وحرب الظالمين ، بالسيف والفرار . أو بالقرطاس والقلم .

سِجَاعَةُ امْرَأَةِ عَمْرِئِ بْنِ

جاءت على مصر سنة ٦٥٧ هـ (١٠٦٤ - ١٠٦٥) م فكانت
بداية محن قاسية على أهلها متلاحمة حاطمة . وقع فيها الغلاء . « الذي
فحش أمره وشنع ذكره ، واستمر سبع سنين » . وكانت الحروب تقع
بين العرب في البلاد والأقاليم ، وكان النيل منخفضاً لا يصل ماءه إلا إلى
طرف قليل من الأرض ، وقليل ما كان هذا القليل يزرع ، لنقص الرجال
والبهائم وفقدان الأمن .

وجاء الوباء عقب الغلاء ، فتعطلت الأرض من الزرع ، وتعرت
من الشجر والنبات . « وخيفت السبل برأ وبجراً ، وتعذر السفر إلا
بالخفارة الكبيرة وركوب الفرار والخطر . واستولى الجوع لعدم القوات »
بيع أردب القمح بمائة دينار ، ثم عدم . وبيع الرغيف في سوق القناديل
بالفسطاط بخمسة عشر ، والبيضة بدينار ، وأكلت القطط والكلاب حتى
قلت ، وأخذ الناس يقيمون لها سوقاً تباع فيه وتشترى لتأكل « وأكلت
الدواب بأسرها فلم يبق للملك المستنصر ، سلطان مصر ، سوى ثلاثة
أفراس ، بعد أن كانت له عشرة آلاف ، ما بين فرس وجمل ودابة .

وبيع الكلب بخمسة دنانير والسنور بثلاثة » وباع رجلٌ داراً كان قد اشتراها بتسعمائة دينار . بعشرين رطل دقيق : « ودخل رجل الحمام فقال له صاحبه . مَنْ تريد أن يخدمك ... ؟ سعد الدولة .. ؟ أو عزّ الدولة ، أو فخر الدولة .. ؟ فقال له الرجل . أنهزؤبى . ؟ فقال . لا والله .. انظر إليهم . فنظر فإذا أعيانُ الدولة ورؤساءها صاروا يخدمون الناس في الحمام لأنهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء ، واحتاجوا إلى الخدمة . »

وتزايد الحال واشتد البلاء حتى أكل الناس بعضهم بعضاً . وكانوا يسبّرون في شوارع القاهرة المأهولة وطرقاتها يملأ الرعب قلوبهم خشية أن يخطّفوا فيأكلهم الجائعون . فقد سمعوا أن فلاناً وفلاناً خطفهم الناس في الطريق ثم لم يظهر لهم أثر ولم يعرف مصيرهم أحد . وترك أكثر الناس مصر فلم يبق فيها إلا من أقعده العجز والفاقة والجوع .

أقيمت صلاة الجمعة في مسجد من مساجد القاهرة ، فلما وقف الإمام للصلاة لم يجد خلفه سوى ثلاثة .. ! وجاءت الجمعة القادمة فسمع الناس من ينادى عليهم بأن من يريد الخروج لصلاة الجمعة في هذا المسجد فليشترك كل ثلاثة في درهم حتى يسير معهم من يجرسهم من الخطف .. ! « وانقطع ماء النيل ، وبلغت الرمانة والسفرجلة ديناراً ، وكذا الخيارة . وكان يموت في مصر ، في كل يوم ، عشرة آلاف إنسان » :

ووجد بعض الذين برّح بهم الجوع أن الناس يسرون متحفّزين خشية أن ينفّض عليهم أحد فيخطفهم ، وكان الجائعون يجلسون على سطوح بيوتهم متجمّعين ومعهم حبال « وكلايب » ، فإذا مرّ أحد إلى جوار البيت ألقوا عليه هذه « السكلايب » ثم رفعوه إلى سطح البيت بغاية السرعة وبكل ما بقى في سواعدهم من قوة ، فإذا ألقوه بين أيديهم قطعوا لحمه وأكلوه !.. « واجتازت امرأة بزقاق القنادل ، وكان مسكن الأعيان وكبار القوم ، وكانت المرأة سميّة . فعلمتها بعض الناس بالسكلايب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها ، وغفلوا عن المرأة ، فخرجت من الدار واستغاثت . فجاء الوالى وكتبس الدار فأخرج منها ألوفاً من القنلى » .

وخرجت امرأة في القاهرة ومعها كل ما تملك من ذهب وجوهر ، وكان شيئاً كثيراً ، وسارت في الطريق تنادى : من يأخذ هذا ويعطينى بدله دقيقاً أو قمحاً ؟ فلم يلتفت إليها أحد ، فألقته في الطريق فلم يمدّ له أحد يداً !.. « فكان ترك الناس له أعجب من إلقاءها إياه !.. »

أما المستنصر فقد باع كل ماحوته قصوره من ذخائر وفرش وآنية ، حتى ثيابه وسلاحه ومائى قبور آبائه من حلى ، وباع ثياب جواريه ومهود أطفاله . وكانت في قصوره ، من زمن الطائع الخليفة العباسى ، ثياب يحفظها

خلفاء مصر ويحرصون عليها أشد الحرص - ليعتبروا بها خلفاء العباسيين - فأخرجها المستنصر وباعها بأبخص ثمن ، وأخرج طسماً وإبريقاً من البلور فبيعا باثني عشر درهما . ثم باع من هذا البلور ثمانين ألف قطعة ومن اليواقيت والجواهر والحريير الخسرواني ما لا يحصى «وثمانين ألف ثوب، وعشرين ألف درع ، وعشرين ألف سيف محلى» . . . : «وصار المستنصر يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره . وكانت نساء القصور يخرجن ناشرات شعورهن يصيحن : الجوع .. الجوع ..! يردن المسير إلى القرافة فيسقطن ويمتن جوعاً» . وجاء وزير السلطان يوماً على بغلته فأنزله الناس من فوقها وأكلوها ..! وشنق الوزير بعض هؤلاء الذين أكلوا بغلته فتسكاثروا عليهم الباقون وأكلوهم ..!

وكانت في القاهرة سيدة شريفة واسعة الثراء حرصت على بعض ما في خزائنها من الطعام فبقيت لها منة فضلة . فلما علمت أن السلطان يجلس على حصيره ولم يعد يجد ما يأكله ، أرسلت إليه قصعة من الثريد : «الفتة» وبقيت ترسل له هذه القصعة ، طعاماً له ، في كل يوم مرة واحدة . ولم يكن السلطان يجد ما يأكله غيرها في نهاره وليله . أما بنات السلطان وأمه فقد خرجن من القاهرة إلى بغداد خوف أن يمتن جوعاً .

رغيف بألف دينار :

وخرجت امرأة ذات مال وحسب تحمل في طيات ثوبها عقداً بألف دينار وطافت به على من تعرف من الصاغة والتجار وأهل المروءة واليسار ترجوهم في أن يأخذوا عقدها ويعطوها فيه دقيقاً . ووجدت المرأة آخر الأمر من يأخذ عقدها ويعطيها فيه كيساً من دقيق . وأرادت أن تذهب به إلى بيتها فلم تجد من يحمله إلا بشرط أن يقاسمها فيه ، وأن يسير في خفارتها من يحميه من الناهبين . ووجدت من يحمي دقيقها بشرط أن يقسم أيضاً . وسارت المرأة خلف الرجال يحملون كيس الدقيق ويحرسونه حتى قاربت أن تدخل بيتها في « باب زويلة » فلم تلبث أن رأت الناس قد هجموا على من يحمل الكيس وتكاثروا على حراسه حتى نهبوه . وتقدمت هي لتتال شيئاً من الدقيق فلم تستطع سوى أن تملأ يديها منه . ودخلت بيتها فعبجنته وخبزت منه رغيفاً ، وخبأت المرأة الرغيف في ثوبها ثم خرجت فتحايلت حتى دخلت باباً من أبواب قصر المستنصر ثم علت منه مرتقى وصاحت وهي ترفع الرغيف في يدها بحيث يراها الناس ؟ : أدعوا لمولانا المستنصر الذي أسعد الله الناس بأيامه حتى صار هذا الرغيف بألف دينار . . ! وأخذت تردد ذلك وتصيح به زمناً ثم اختفت .

وسمع المستنصر قصة المرأة والرغيف فانهبضت نفسه وضاق صدره حتى
أوشك أن يهلك ، ثم ثار في قلبه الغضب وما كان باقياً فيه من سطوة
ونخوة وحزم ، فأحضر الوالى وأقسم له بالله إن لم يظهر الخبز في الأسواق
فهو لا بدّ قاتله ... !

وعمد الوالى إلى حيلة : طلب من السجن جماعة من الذين وجب عليهم
القتل فألبسهم ثياباً واسعة وعمائم وطبائس مثل لبس التجار . ثم جمع تجار
القمح والطحّانين والخبازين وجعل منهم مجلساً عظيماً حافلاً ، وأمر بأن يخرج
إليه واحد من المسجونين ، فلما خرج قال له غاضباً : كيف تجرؤ على عصيان
أمر مولانا وسيدنا وسلطاننا فتسكنز الغلال وتخفيها ... ثم أسر أن
تضرب عنقه فضربت . وأخرج رجلاً آخر مثله فقال له وقد زاد غضبه :
ما تظنّ جزاءك على أن تحتكر الغلال وتخالف أمر مولانا وسيدنا السلطان
فتحسب القمح عن الرعيّة ... ؟ حتى فعل غيرك مثلك فجاء الناس ... !
وأمر أن تضرب عنقه فضربت . ثم أمر بأن يدخل غيره ممن حكم عليهم
بالإعدام . ولما رأى تجار الغلة والخبازون والطحّانون هذه الرؤوس تسقط
أمامهم قاموا إليه لا تحملهم أرجلهم من الخوف . وقالوا : أيها الأمير ؛
في بعض ما جرى كفاية ، نحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونظهر الخبز
كلّ رطل بدرهم . فقال الوالى . هذا لا يكفي ، فقالوا . كل رطلين بدرهم

— ١٨٤ —

وأخذوا يتضرعون اليه و يتوسلون حتى قبل منهم .

وذكر الناس بالخير هذه السيدة الشجاعة التي اشترت الرغيف
بألف دينار . . . !

وشاء الله بعد ذلك أن يرتفع الوباء ، ويعلو ماء النيل ، وتخصب
أرض مصر . بعد أن بقي الناس بين الفناء والبأساء سبع سنين ، كسفين
يوسف .

السلطان الشهبه طومان باى

فى شهر رجب من سنة ٩٢٣ [أغسطس ١٥١٦ م] التقى فى «مرج دابق» بالقرب من حلب، جيوش مصر وعلى رأسها سلطانها «الملك الأشرف قانصوه الغورى» بجيوش سلطان تركيا سليم شاه. وكسرت جيوش الغورى بعد ساعات قليلة بسبب الخيانة، ولكن سلطان مصر لم يبرح مكانه فى ساحة الحرب، حتى قتل تحت رايته. وكان السلطان سليم قد قهر قبل ذلك الشاه إسماعيل، شاه إيران.

دخل سليم مدينة حلب، واستولى على بقية بلاد الشام، ثم نزل بعد ذلك إلى مصر، حتى وصل «الريدانية»^(١) من أطراف القاهرة فالتقى بسلطانها العظيم. «طومان باى».

ولم تسكن المقادير التى جرت على طومان باى خيرا من تلك التى لقيها سلفه الغورى، فقد هزمت جيوش مصر فى هذه الموقعة كما هزمت فى «مرج دابق».

(١) العباسية الآن.

وفي الأيام الأولى من شهر الحرم للسنة التالية كان سليم يقيم في السراق، الذي نصبه لنفسه على شاطئ النيل في بولاق وقد خيل إليه أن مصر وسلطانها قد استسلما لبطشه ، وسأما بما جرت به المقادير .

ولسكن . في عتمة العشاء من ليلة الأربعاء ، وكان اليوم الخامس من الحرم ، تنادى الصائحون الخائفون في معسكر السلطان بأنهم أحيطوا من كل جانب ، وتلفت السلطان فوجد بعض خيامه يحترق وشاهد عددا من الجمال تحمل على ظهورها أثقالا تتوهج فيها النار ، وهي تجري بين خيامه تشعل النار في كل شيء ، وتنشر الذعر بين خاصة جنوده وقواده وحرسه . وكان المصريون هم الذين أطلقوا هذه الجمال بأثقالها المحترقة في معسكر السلطان . وشهد الأتراك وسلطانهم بريق السيوف في ظلمة الليل وضوء هذه النار المدمرة وهي تطيح برؤوس جنده من حوله ، حتى أوشكت أن تناله هو .

وتقدم بعد ذلك الرجال والصبيان من سكان بولاق ، ونوتية السفن الراسية على النيل يهجمون على سراق السلطان سليم يرجونه بالحجارة وقطع الأخشاب المشتعلة ، وكل ما تصل إليه أيديهم « حتى قتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم » وظل هذا الهجوم ، من طومان باي .

ومن بقي من جنوده ومن شعب القاهرة الذي شاهد المعركة أو سمع بها ، ظل المهجوم متصلاً قويا إلى أن أصبح الصبح ، وحتى ظن سليم أنه سيقع في يد المصريين .

وأشرق نور الصباح وقد أحاط المصريون وسلطانهم بسرادق سليم ، وشهد الأبطال المهاجمون عسكرياً كثيفاً قدم لنصرتهم من « الفاصرية » يقوده أمير من أمراء طومان باي فاشتد به ساعدتهم وقوى هجومهم ، حتى . « كانت هناك واقعة تشييب منها النواصي » . وظلت الحرب مستعرة بين الفريقين من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، واسترد المصريون في ذلك النهار قسماً كبيراً من مدينة القاهرة . وفي أثناء ذلك أحاط العرب بعسكر السلطان سليم الذي أقامه في الريدانية وهاجموه هجوماً شديداً ونهبوا ما فيه . وظلت القاهرة مسرحاً كبيراً للاضطراب والفوضى ، واستمر القتال والقتل بين المصريين وعسكر السلطان سليم ، على أعنف ما يكون القتال والقتل . وكان السلطان طومان باي يقف في مكان ما بالقاهرة يتعرف أنباء القتال وتلقى أمامه رؤوس السكبار من قتلى العثمانيين . وكان هؤلاء يهاجمون البيوت والمساجد وأضرحة الأولياء ويقتلون الشيوخ والعجزة والصبيان .

وظهر طومان باي في حي « العسالية » على ظهر فرسه يقاتل ويهاجم

حتى استولى على ما بينها وبين قناطر السباع . ولم يكن معه سوى نفر
 قليل من أمرائه وجنده . فأسرع بإقامة خندق يحيط بالأماكن التي استرجعها :
 [من الصليبية إلى قناطر السباع إلى ميدان الرميلة ^(١) إلى جامع ابن طولون
 إلى حِدرَة البقر] وأراد أن يشعل النار فيما استولى عليه العثمانيون من أحياء
 القاهرة . ثم عدل عن ذلك ، لأن من بينها حيّ « خان الخليلي » . وأخذ
 بعد ذلك يقسم جنوده للحرب والهجوم على جند السلطان سليم حيثما
 كانوا . وبذل في ذلك كل جهد وحيلة ومقدرة . وكان فريق من جند
 مصر يتترس في مسجد السيدة نفيسة ويحارب العثمانيين منه . فاقتحم جند
 السلطان سليم المسجد وتغلّبون على من فيه : (ودخلوا إلى ضريحها وداسوا
 على قبرها وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذي كان عند قبرها وسجاجيد
 الزاوية وأخذوا من مقامها شيئاً كثيراً) وقتلوا من كان في المقام من
 المحاربين والمسلمين .

وصعد جماعة من جند مصر إلى مأذنة جامع « المؤيد » يحاربون
 الأتراك ببنادقهم ، وظلّوا يحاربون حتى تسلّق عليهم الأتراك المأذنة وقتلواهم
 حتى آخر رجل .

(١) الآن ميدان القلعة .

وكانت معركة فناء في كل حيّ وشارع وبيت : (صارت القتلى من الجانبين أجسادهم مرمية من بولاق إلى قناطر السباع إلى الرميلة إلى تحت القلعة ، وفي الحارات والأزقة وهم أبدان بلا رؤوس). وكان السلطان طومان باي يحارب بنفسه في كل هذه الأماكن ويحرّض الفاس على المقاومة . رغم قلة جنده وإعيائهم . وكلما نقص عدد جنده زادت حماسه اشتعالاً وزاد قتاله وفتكه شدة وضراوة ، وظل هذا حاله أربعة أيام متوالية . حتى لم يبق معه سوى نفر قليل . عند ذلك رأى من الحكمة والخير أن يختلف ليظهر مرة أخرى بعد أن يجهز جنداً جديداً ، ويضع خطة جديدة .

وأُنزل السلطان سليم وجنده غضبهم وطغيانهم وشرهم على المسلمين . والضعفاء من أهل القاهرة وسلّطوا عليهم سيف انتقامهم . وافتحموا مساجد الأزهر وابن طولون والحاكم بأمر الله وكثيراً من المساجد والزوايا والتكايا يقتلون ويسفكون الدماء . يقول ابن إياس مؤرّخ هذه الوقائع وشاهدها : أنّ من قتل من أهل القاهرة يوم ذاك بلغ عشرة آلاف . ووقع أسيراً في أيديهم ثمانمائة من جند طومان باي ، فقتلهم جميعاً بين يدي السلطان سليم . وكثرت السكّاب في القاهرة تنهش أجساد القتلى . وأسرت كثيرات من كبريات نساء مصر . منهن السلطانة زوجة السلطان .

طومان باى ، ونقلن إلى حيث يقيم السلطان سليم فلم يلتفت لهن . ثم أمر بفرض ضريبة فادحة على زوجة طومان باى .

أراد السلطان سليم بعد ذلك أن يباشر سلطانه ، وأن يصعد إلى القلعة ، قلعة القاهرة المعزية ، مقر الملك والحكم إذ ذاك . ولكنه كان يخشى غضب المصريين وانتقامهم . وكان يخاف أن يبطشوا به وهو في طريقه إليها . فأمر بأن يترك الناس بيوتهم ومساكنهم على طول الطريق إلى القلعة . وأن تخلى للمسالك والدروب والمساجد والأماكن التي تقع في طريق سيره . وبقي أياما ينادى على ذلك في القاهرة كلها . فلما أمن على نفسه صعد إلى القلعة . وأمر بأن ينادى بالأمان على أهل القاهرة . وأنه ليس يصيبهم سوء . وفي تعبیر ابن إياس الساذج الصادق المؤثر نجد صورة لواقع هذا الأمان في نفوس الناس ، وصدقه عند الجنود العثمانيين من رجال السلطان سليم . يقول ابن إياس : (... وكيف الأمان وقد خرجت الناس من بيوتهم على وجوههم في أسوأ الأحوال ... وهجمت الطوائف العثمانية على الناس في بيوتهم وأخرجوهم منها وسكنوا بها حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم وصاروا كالجراد المنتشر . وهدم الجنود العثمانيون بيوتاً ومساكن كثيرة استولوا عليها) .

ويصف ابن إياس شعور المصريين بعد انتهاء مقاومتهم الباسلة هذه بأن الناس عندما عرفوا أن عدوهم السلطان سليم سيصعد إلى القلعة : « إنطلقت في قلوبهم جمر نار » .

وقد قتل سليم عددا كبيرا من المصريين بعد أن أعطاهم الأمان ، وساق خلفه عددا منهم مقيدين بالحبال عند صعوده القلعة .

ولا نتحدث عما أصاب القاهرة بعد ذلك من الجوع والتحط والخوف . ولا ما أوقعه سليم وجندُه بالناس من الظلم والقتل ، فهذا حديث يطول ، وليس مما نحن بسنيله في هذا الفصل .

وكان من أول ما شهد المصريون من مظاهر الحكم التركي الجديد أن نصبت خارج القلعة « خيمة » فيها شراب « البوظة » وأخرى فيها « الحشيش وثلاثة فيها صبيان مرّد » لأجل المحارفة » كما يقول ابن إياس .

تردّت بعد ذلك أنباء كثيرة عن طومان باي وسعديه في الصعيد ليجمع الناس من حوله فيعود بهم إلى القاهرة ليحارب فيها العثمانيين مرة أخرى . وكانت هذه الأنباء تصل إلى السلطان سليم في القلعة فتدخل في قلبه الخوف . ويزداد بطشه على أهل مصر .

وفي يوم الأحد ٦ ربيع الأول من سنة ٩١٣ [مارس ١٥١٧] خرج السلطان من القاهرة إلى الجيزة بعد أن تأكد له قدوم طومان باي لحربه وإخراجه من مصر . فرأى أنه لو بقي فيها حتى يجيء طومان باي لوقع بين نارين : جيش سلطان مصر ومن معه من المصريين والعرب الذين نجموا معه . وشعب القاهرة الساخط الغاضب المتحفز للانتقام والثأر والثورة .

وبقي سليم ينتظر في الجيزة حتى قدمت جيوش مصر وعلى رأسها سلطانها طومان باي يوم الخميس ، بعد أربعة أيام .

وكانت بين الجيشين موقعة فناء ، أشد هولا وإصراراً وضراً من المواقع السابقة ، وهزمت جيوش السلطان سليم أكثر من مرة ، حتى ألقى الكثيرون من جنده أنفسهم في النيل ، هرباً من سطوة المصريين وسيوفهم ونيرانهم ، وقتل من الأتراك عدد كبير ، حرباً وغرقاً . ولكن النهاية لم تكن كما شاء طومان باي وشاء المصريون ، وكانت هذه هي المعركة الخامسة بين جيوش الأتراك المعتدية وجيوش مصر المدافعة الباسلة .

ولكن طومان باي - رغم شجاعته الفادرة وإصراره على الحرب والنصر - كان « أرشل » كما يصفه ابن إياس ، أي سييء الحظ .

— ١٩٣ —

انطلق طومان باى بعد أن دافع عن وطنه ومملكته وشرفه ودافع الأبطال،
إلى قرية « البوطة » من قرى مديرية البحيرة .
وكان يقيم في هذه القرية شيخ من شيوخ العرب هو حسن مرعى .

* * *

أمر سليم بعد نهاية المعركة أن يقتل زعماء المقاومة من المماليك
والمصريين . فقتل منهم نحو ثمانمائة . ووضعت رؤوسهم على أعمدة من
الخشب طاف بها الطائفون شوارع القاهرة ليراها أهلها . وأخس سليم
ورجاله بعد ذلك في ظلم الناس وإرهابهم إلى أبعد غاية . وأخذ سليم ينقل
من معالم القاهرة ومساجدها كل شيء يعجبه ، وكل صاحب صنعة دقيقة .
أخذ يجمع ذلك كله ، حتى الرخام الجميل وأعمدة المساجد والاحتامات ، ويأمر
بنقل ذلك كله إلى الأستانة . نقل ذلك على ألف جمل ، كما يقول الجبرتي .
وبلغ من جمعهم سليم من رجال الصنعة الدقيقة والحرف الفنية أكثر
من ألف صانع وعامل . نقلهم جميعاً من مصر إلى تركيا . وكان لذلك
أثره البعيد في الفن والصناعة لفترة طويلة بعد ذلك . حتى عِدَّتْ من
مصر صناعات فنية دقيقة . وتلاشى أمرها فنسيَتْ وماتت .

الخيانة مرة أخرى :

في قرية « البوطة » نزل طومان باى على صديقه شيخ العرب حسن
(١٣ م — بطولات عربية)

مرعى وابن أخيه «شكر» . وكان حسن مرعى هذا مديفاً لطومان باى بأفضالٍ كثيرة : كان حسن مرعى سجيناً من عهد سلطان مصر السابق «الغورى» فأخرجه طومان باى من السجن . وكثيراً ما دفع له طومان باى مالا يستطيع دفعه من الأموال والمغارم التي كان يفرضها عليه الغورى . فكان من حق طومان باى أن يطمع في عرفان الجليل عند صديقه هذا . وابن إياس يقول إن حسن مرعى هو الذى طلب إلى طومان باى أن يختبئ عنده ... !

ولما نزل السلطان على حسن مرعى وابن أخيه ، أحضر مصحفاً وطلب إليهما أن يقسما ألا يخوناه ولا يشيا به ولا يجهلان خبره يصل إلى عدوه وعدو وطنهما سليم . فأقسم حسن مرعى وابن أخيه على ذلك سبع مرات ، على المصحف الشريف .

عند ذلك أمّن طومان باى ورضى أن يقيم عندهما . وبدأ المصريون ووعرب البحيرة يتجمعون مرة أخرى حول السلطان ويلتقون به . وليس بعيداً أن يراوده الأمل مرة أخرى في أن يجمع شمل المقاومة المصرية فيعود إلى حرب غريمه السلطان سليم في القاهرة . ولكن الخيانة أيضاً كانت من وراء هذا الأمل وهذا السعى ، فقد أرسل شيخ العرب حسن مرعى وابن

أخيه إلى سليم نبأ طومان باى وقدمه إليهم ، وأنهم يحتجزونه حتى يرسل
لهم من يأسره .

وبادر السلطان سليم عند ذلك فأرسل جماعة من جنده حيث أخذوا
السلطان الشهيد من عند صديقه الخائن حسن مرعى . وكانت يد السلطان
التي حملت السيف وعرفت كيف تدافع به عن شرف مصر ، ولم تلقه إلا
لترفعه مرة أخرى . كانت يد السلطان مكبلة بالحديد ، يحيط به حرس
شديد من جنود السلطان سليم ، وكان ما يزال متخفياً ، زيادة في الحيلة
والحذر ، يلبس ملابس عرب الهوارة في الصعيد . وانفض الناس
الذين بدأوا يتجمعون حوله .

سارع الجند بالسلطان الأسير إلى غريمه وعدوه ، فبادر هذا بملاقاته
وأمر أن يسرعوا بإدخاله عليه ، وكما كان طومان باى شجاعاً في حربه .
كان شجاعاً جسوراً في أشدّ المواقف حرجاً وضيقاً . موقف الأسير المتهور
أمام عدوه الظافر القاهر المتغلب ، الذى يتلأ قلبه زهواً وغضباً وحقداً .
لم يشعر في هذا الموقف السكريه بشيء من الذلة أو التخاذل ، بل كان ممثلاً
القلب كبرياء وعزة وشجاعة وأنفة . عندما أدخل طومان باى على سليم
استقبله هذا واقفاً ، ثم قال له : « لماذا لم تعترف بسططى وتدخل فى طاعتى
عندما دعوتك إلى ذلك ؟ » فأجابه طومان باى : « إني مكلف

بالدفاع عن بلدى الذى أحكمه ويجب على أن أحياه وأصونه . كما يجب أن أصون الحرمين الشريفين : مكة والمدينة . أمّا أنت فما أدرى كيف تبرّء نفسك أمام الله من عدوانك الظالم علينا وعلى بلادنا .. ! » وأخذت الدهشة قلب السلطان سليم وعقدت لسانه . ولما كن طومان باى انطلق يقول : « إنك يا سلطان تركيا غير ملوم على سقوط مملكتنا وهزيمتنا . بل الذنب كله على الخونة .. ! » وأشار إلى خيربك وچان بردى الغزالي : الخائنين الذين تواطئنا من قبل مع سليم ، وكانت خيانتهم سبباً فى هزيمة مصر وسلاطنها .

وكانت شجاعة طومان باى فى هذا الموقف العصيب سبباً فى تقدير السلطان سليم له واحترامه إيّاه ، فقال : ليس من العدل أن نقتل رجلاً شجاعاً صادق العزيمة كهذا الرجل ، وانتهى مجلس السلطان .

« ولما سكن الخائنين خشيها على حياتهم . ولم يجدا لها أمناً إلا فى أن يقتل طومان باى ، فاحتالا لذلك . إذ حرّضا بعض أتباعها ليقف فى طريق ركب السلطان سليم ، حتى إذا مرّ دعوا لطومان باى بالنصر وطول العمر . و مرّ السلطان سليم فى ركبه فسمع ناساً يقولون بصوت مرتفع : « الله ينصر السلطان طومان باى .. ! » فنارت فى نفسه الهواجس والوساوس . وأكمل الخائنان تدبيرهما « فحرّكا فى قلب السلطان سليم الغضب والخوف .

وحرّضاه على قتل غريمه ، لأن الناس يحبونه ، وقد تحدث في مصر أحداث
إذا تركه سليم حيّاً ورجع إلى تركيا . وكانت نفس السلطان سليم مهتأة
لذلك ، بعد ما سمع وشاهد من الدماء والنداء .

بعد تلك المواجهة العاصفة ، وهذه الدسيسة الخسيسة . اعتزم السلطان سليم
أن يقتل سلطان مصر الشهيد الشجاع . فأبقاه إلى جواره في « الخيمة » التي
كان يقيم بها في « امبابية » ، سبعة عشر يوماً . حتى جاء يوم الاثنين ١١ من
ربيع الأول ، فنقلوه إلى بولاق في حراسة أربعمائة جندي عثماني . وكان
يركب « كديشا »^(١) وعليه ثيابه التي أسر بها في زى عرب الهوارة . والحديد
في يديه ، فسار به حرسه من « مرجوش » وقد تجّمع الناس إلى جانبي
الطريق لرؤيته . وكان يلقي عليهم السلام ويحييهم وهو لا يعرف ماذا
يريد به أعداءه . وكان أهل القاهرة يعتقدون أن السلطان سليم أمر بنقله
إلى مكة . ولما كان حرسه وقف به عند « باب زويلة » ثم أنزلوه من فوق
كديشه وأرخوا الحبال التي كانوا يوثقونه بها . والتفوا حوله وسيوفهم
مسلولة .

نهاية بطل :

وأدرك السلطان عندئذ أنه سيشتق ، فوقف على قدميه رافع الرأس

(١) الفرس الهجين : غير الأميل

شائخاً ثم قرأ الفاتحة ثلاث مرات وطلب إلى مَنْ حوله من الناس أن يقرأوها ، فقرءوا ، ثم قال لمن سيشفقه : « إبدأ عملك ١... » وانقطع الحبل من حول عنقه فسقط على الأرض مرتين أو ثلاثاً وهو مكشوف الرأس .

« فلما شنق وطامت روحه صرخت عليه الناس صرخةً عظيمة » وكثر عليه الحزن والأسف ، فإنه كان شاباً حسن الشكل كريم الأخلاق . . . وكان شجاعاً بطلاً تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه وفاته في عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات وهو في نفر قليل من عسكره . ووقع منه في الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة . . وكان لما سافر عمه السلطان الغوري جعله نائب الغيبة عنه إلى أن يحضر من حلب ، فساس الناس في غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية في غيبة السلطان ، وكانت القاهرة في تلك الأيام في غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك . ولما مات السلطان الغوري عمه وتسلم السلطان عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة ولم يشوش على أحد في مدة سلطنته . ولما وصل السلطان سليم إلى الشام وأراد أن يخرج لحربه ، كانت خزائن مصر خالية . فنصحه مستشاروه أن يأخذ من أهل القاهرة أجور مساكنهم سبعة شهور مقدّمة ، وأن يأخذ ضرائب الأتبان سنة مقدّمة . فلم يسمع لهم شيئاً وأبى من ذلك وقال : « لا أجعل هذا مستطراً في صحيفتي » وعندما

شقيق طومان باي كانت سنه اربعا وأربعين سنة. وسلطنته على مصر دامت
ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما . وبقي جثمانه معلقا على « باب زويلة »
ثلاثة أيام حتى ظهرت رائحته . وبعد ذلك أنزلوه ووضعوه في تابوت ثم
نقلوه إلى مدرسة عمه الغوري فدفنوه في فناءها الخلفي . « ولم يسمع بمثل هذه
الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شق على باب زويلة قط ، ولم
يعهد مثل هذا » .

وقد وضع ابن إياس — الذي نقلنا عنه السطور السابقة — قصيدة في
رثاء طومان باي نلمس فيها صدق العاطفة ، ووقع الفاجعة في هذا السلطان
الشهيد . على ما في هذه القصيدة من رككة النسج وضعف الأسلوب ، الذين
كانا طابع الشعر والنثر في ذلك العصر .

يقول ابن إياس :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمت مصيبتها الورى
ثم يصف هزيمة جيش مصر أمام السلطان سليم ، ويصف ملوك مصر
وعظمتها المنهارة ، وأعيادها وأمجادها ونظام جيوشها وقوتها . ويصف ، في
تأثر وتفصيل ، ما أوقعه سليم وجنوده من الخراب والشر بالقاهرة

ومساجدها وبيوتها، حتى « الخيمة العظمى » ، التي كانت مخصصة لمولد
النبي الكريم ، بيعت بأبخس الأثمان . ثم يحمل ما فصل فيقول !:

زالت محاسن مصر من أشياء قد كانت بها تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشبّثوا وخلت منازلهم وعادت مقفرا

ويصف قتل الشيوخ والأطفال وامتهان الحصنات من النساء ، ثم
يتلهف على سلطان مصر الشهيد طومان باى فى هذه الأبيات الحزينة الجازعة:

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولّى وزال، كأنه لم « يذكرا »
شذوقه ظلماً فوق باب زويلة ولقد أذاقوه العذاب الأكبر
يارب فاعفو عن عظام جرمه واجعل جنان الخلد، ربّ، له قرا^(١)

صخرة النار

وقد أوشكت « جمرّة النار » التي قال ابن إياس إنها اشتعلت فى قلوب
المصريين من قتل سلطانهم الشهيد . أوشكت هذه الجمرّة أن يحترق بها
السلطان سليم فتزديه وتنتهى حياته .

(١) هذه الأبيات وحدها هى الموجودة فى تاريخ ابن إياس . والقصيدة كاملة فى
خطوط على مبارك ص ٦٢ — ٦٣ من الجزء ١٥ .
والقبتسات عن ابن إياس فى الصفحات ١٧٢ — ١٧٤ الجزء ٥ — ٥ . من
تاريخه . طبع جمعية المستشرقين الألمان فى اسطنبول سنة ١٩٣٢ بإشراف كالة ومحمد مصطفى
وموريس سورنهام .

فقد تجتمع فريق من بقى من خاصّة طومان باى ، وأحكموا أمرهم على مؤامرة يغتالون فيها السلطان سليم .

كان سليم يقيم فى « قصر المقياس » بجزيرة الروضة . وكان حرسه الشديد يحيط به من كل مكان نهراً وليلاً . واختار الأمير « قانصوه العادلى » أحد أمراء الحند فى جيش طومان باى ، ليلة مظلمة . فنزل النيل فى مركب صغير يحرسه بعض المتآمرين من المصريين ، وصعد من سلم المقياس إلى حيث دخل القصر . وسمع حديث الحرس فاختفى منه حتى انقطع الحديث . وسار فى طريقه إلى حيث يفام السلطان سليم ، ولكن بعض الحرس أحسّ به فتصايح على إخوانه . وأمسك الجميع سيوفهم يهاجمون البطل المتسلل . وقد شهده بأعينهم يلبس ثياب الأعراب . فلمسا أيقن أنهم مدرّكوه ، ألقي بنفسه فى النيل ، وكان أنصاره ينتظرونه فى المركب فأسرعوا إليه وحملوه بعد أن قطع مسافة طويلة وهو عائم ، وحرس السلطان سليم يكثّر من إطلاق الرصاص عليه ، وكان السلطان قد استيقظ خائفاً فزعاً ، وأخذ يصيح فى حرسه ألا يكفّ عن إطلاق النار حتى يقتل هذا الزائر البغيض . ولكن الأمير المغامر استطاع ومعه إخوانه ، أن يصل إلى البر وينجو عند ساحل بولاق .

أما الخائن حسن مرعى فقد تلقى ثمن خيانتة من السلطان سليم ، حيث كافأه وأنعم عليه .

ولسكنه لقيَ جزاءَ خيانتِهِ من مصر أيضا . حيث هاجمه المصريون
ومن نجا من الشراكسة ، مماليك طومان باي وأنصاره ، فذبحوا هذا
الخائن وشربوا من دمه ، وكذلك قتلوا أخاه « شكرا » . وأظهروا الفرع
بقتل الخائنين . فأقاموا في القاهرة معالم الزينة والبهجة ، أمام أعين الأتراك .

سَبَابٌ وَبَطُولٌ*

(*) أكثر هذه الفصول أذيع من محطة الإذاعة المصرية خلال سنة ١٩٥٧

صبيّ أسود

كان الصحابة والمجاهدون من المؤمنين خارجين من المدينة لملاقاة المشركين الذين قدّموا لحربهم في وطنهم وديارهم ، وكان النّبي عليه السلام يلبّس درّعه ويسير معهم للحرب . ورأى الناسُ بينهم صبيّاً أسود يجِدُّ في السير ليلحق بهم . فعجبوا لأمره ، وأعجبوا بإيمانه وشجاعته ، وأعادوه إلى المدينة لصغر سنّه ، وهو كاره .

ولقى المسلمونَ في غزوة أُحُدٍ هذه بلاءً وشدةً : قُتِلَ فيها حمزة ، عمّ النّبي وسَيِّد الشهداء ، وأصيب النّبي بجرحٍ في وجهه وشَفَقَته وجبهته . وكان من أسباب هذا البلاء وهذه الشدة أن اليهود الذين حالفوا المسلمين وخرجوا للحرب معهم ، تركوهم قبل الموقعة وعادوا إلى المدينة . فكان المسلمون سبعمائة ، والمشركون ثلاثة آلاف .

وعاد النّبي وأصحابه يتحدّثون عما أصابهم ويتحدّثون عن هذا الصّبي الذي كان يريد أن يلحق بهم ويجاهد . فعرف من لم يمكن يعرف أنه : « أسامة » ، ذلك الذي يحبّه رسول الله حبّاً جمّاً ، كما يحب أباه أيضاً .

شهد النّبي أباه عبداً يباع فأحبّه ، وطلب إلى زوجته خديجة أن تشتريه ، فاشتريته

- ٢٠٦ -

وأعتقته . وتبناه النبي وأضفى عليه من حبه وبره . وأحب ابنه أسامة أيضاً .
وباغ من حب النبي عليه السلام لابنه أسامة أن كان يركبه خلفه على ظهر
دابته وهو يدخل السكبة . وكان يجلسه على حجرة مع الحسين بن علي ،
حب رسول الله وابن حبه ، ويقول : « اللهم إني أحبهما فأحبهما »

وقتل زيد في حرب الروم ، في غزوة مؤتة : مزقته رماح العدو وهو
يحمل راية النبي عليه السلام .

اختار النبي أسامة أميراً على الجيش لغزو الشام ، وما يزال صغيراً ،
وأمره أن تطأ خيوله أرض « البلقاء » وما جاورها من مؤتة ، في أرض
فلسطين ، حيث قتل أبوه . وأن يهجم على عدوه في بكور الصباح .

وخرج النبي وهو في مرض الموت ، فرقى المنبر وأوصى المسلمين بأن
يتبعوا جيش أسامة . ثم قال : « لأن قلتم في إمارته شيئاً فقد قلتم في إماره
أبيه من قبل . وإنه لأهل للإمارة كما كان أبوه أهلاً لها »

واستأذن أسامة النبي في صحوة الموت أن يخرج فأذنه . ثم عاد أسامة
من الطريق بعد أن بلغه موت النبي ، فدخل المدينة فغرس رايته عند باب
عائشة . ودخل يصب الماء على جسده الطاهر للغسل ، من فوق قميصه .

وتحدث المسلمون مرة أخرى في إمارة أسامة على الجيش ، وفيه من هم

تَسَنَّ مِنْهُ وَأَكْبَرَ. وَاعْتَرَضَ عُمَرُ عَلَى إِمَارَتِهِ وَبَعَثَهُ. وَلَكِنْ أَبَا بَكْرٍ أَبِي
إِلَّا أَنْ يَنْجِزَ مَا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ. وَخَرَجَ أَسَامَةُ أَمِيرًا عَلَى جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَرَضِيَ عُمَرُ. وَسَارَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ خَلْفَ الْقَائِدِ الْفَتْحِيِّ يُوْدَّعَانَهُ . فَلَمَّا افْتَرَقُوا
لَا سِتَازْنَ أَبُو بَكْرٍ أَسَامَةَ فِي بَقَاءِ عُمَرُ فَأَذِنَ .

لَمْ تَمُضْ عَشْرُونَ يَوْمًا حَتَّى أَغَارَ أَسَامَةُ وَجَيْشُهُ عَلَى الْهَلْقَاءِ ، فَتَنَارَ لِأَيِّهِ
وَالْمُسْلِمِينَ ثَارًا عَظِيمًا . وَهَزَمَ أَعْدَاءَهُ شَرَّ هَزِيمَةٍ . وَكَانَتْ صَبِيحَتُهُ وَصَبِيحَةُ
جَنْدِهِ وَهُمْ يَهَاجِمُونَ وَيَقْتُلُونَ : « يَا مُنْصُورَ أُمَيَّةٍ » . وَانْتَصَرَ أَسَامَةُ وَعَادَ إِلَى
الْمَدِينَةِ يَمْتَلِئُ الْجَوَادَ الَّذِي قَتَلَ أَبُوهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى ظَهْرِهِ . وَيَرْفَعُ اللَّوَاءَ
الَّذِي عَقَدَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ بِيَدِهِ .

بمض بنا إلى حيث تريد

بقى النبي والمسلمون من المهاجرين والأنصار سنّتهم الأولى بعد هجرتهم إلى المدينة مطمئنين آمنين على دينهم ، بعد أن كانوا في مكة يلقون من عنّت المشركين وشدّتهم عليهم محنةً عظيمة . بقوا هذه السنة هاتئين فرحين بتلك الأخوة التي وثّق عُراها بينهم رسولُ الله ، يقتسمون ما يملكون من متاع ومال في شئون حياتهم ومعاشهم ، ويشترون في عاطفة واحدة من التفاني والحمية وثقةً بثّها بينهم وشيعة الدين وتلك القدوة المثالية الرائعة التي كانوا يرونها في الرسول الكريم . فلما جائت السنة الثانية من الهجرة كانت قافلةً لكفار قريش على وشك أن تمرّ بمحاذاة المدينة في طريق عودتها من الشام إلى مكة تحمل تجارة عظيمة لهم . وكان النبي عليه السلام قد أوقف من يرصدها ليعرف موعد قدومها . وجاء هذا الراصد يخبر النبي أن القافلة أصبحت قريبة من المدينة ، وعمّا قريب تمرّ بها . فجهّز النبي جيشاً صغيراً يزيد قليلاً على ثلاثمائة ، وخرج به ليقاقل حرس القافلة ويستولى عليها ، جزاء ما لقي المهاجرون في مكة من الأذى . ولكن المنافقين بادروا فأخبروا قريشاً خبر خروج النبي وجيشه ، فخرج المشركون في جيش عظيم لإيقاد تجارتهم وأموالهم .

لم يكن النبي والمؤمنون يعرفون أنهم سيلاقون جيشاً عظيماً العددي قوياً
العدّة ، فقد خرجوا لحرب جماعة قليلة في حراسة القافلة ، فلما وصلوا بدرأ
وعرفوا أمر هذا الجيش جمع النبي أصحابه ليستشيرهم : هل يهاجمون القافلة
ليأخذوا ما فيها من مال وتجارة .. أم يحاربون عدوهم فيأخذوا بثأرهم ،
وينصروا دينهم ويهزموا جيش الشرك . . . أمّا الأول فأمره يسير هين .
وفيه من المغنم ما يُغري النفس ويفتن القلب . وأما الثاني فأمر شاق عسير
قد يكون فيه قليل من الغنم ولكن فيه شيئاً عظيماً مما يسعد القلب ويغبط
النفس وبشرح صدور المؤمنين : فيه رضوان الله وثوابه وإعلاء كلمته
ونصرة دينه .

وتحرّكت عند فريق من المسلمين الرغبة في المغنم الهين اليسير ، خشى
قلّة عددهم وضعف استعدادهم فقال : يا رسول الله ، لو أنك أخبرتنا أننا
سنحارب لأخذنا للحرب عدتنا ، ولكن خرجنا للقافلة ، وتحدث القوم
في ذلك حتى برز شاب من المهاجرين هو المقداد بن الأسود ، أو المقداد بن
عمر ، فقال بصوت يفيض حماسة وقوة وإيماناً : يا رسول الله ، إمض بنا
لما أراد الله لك فنحن معك . والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى :
« إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن نقول : إذهب
أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون مادامت فينا عيون تطرف . والله
(م ١٤ — بطولات عربية)

الذى بعثك بالحق لو ذهبتَ بنا إلى أرض اليمن أو الحبشة لسرنا معك
وحاربنا بسيوفنا وجالَدنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك
ومن خلفك حتى تبلغ ما تريد .

وسمع أصحاب رسول الله ذلك فأيدوا وتابَعوا وصدَقوا . فأشرق وجه
النبي وبارك الشاب ودعا له بخير .

لقد آثرَ المقدادُ الحربَ والجهادَ في سبيل الله ، وسبيله أشق وأعسر
ولا غنم فيه قريب ، على أن يفال مغنم المال والتجارة وسبيلها أهون وأيسرُ
وأقرب . وكانت كلمته فيصلاً للرأى لم يبق بعدها سبيل لمرتد ولا خائفٍ
ولا ضعيف ولا طامع . ثم وقعت الحرب ، في اليوم السابع عشر من
رمضان ، بين جيش النبي وصحابته ، وعددهم قليل ، وبين جيش الكفار
يفوقهم في العدد والعتاد . وثبت المسلمون . وكان المقدادُ من أعظم الذين
أبْلوا فيها شجاعةً وقوةً ومقدرةً : كان راكباً فرسه الذى يسمّى « سَبْحَة »
مستقيماً الصدر على الرأس حديد البصر يرمى نبله عن فرسه فيصيب ،
ويضرب بسيفه كواهل الأعداء ورؤسهم فينهشم وينحى . وكان رسول الله
يخرج من عريشه فيقاتل ويشجع المؤمنين ويكرّمهم ويدكرهم قول الله :
سيهزم الجمع ويولون الدّبر . وكلما سمع المقدادُ ذلك أقدم وأقدم ، وأمعن

في القتال . ولم يكن في جيش المسلمين يوم ذاك ، كما روى الإمام عليّ ،
من يركب فرساً سواه .

فلما أتمّ الله نصره على المؤمنين كانوا قد قتلوا سبعين رجلاً من
المشركين ، منهم أربعة وعشرون من أشرف قريش . فيهم أبو جهل
قائد الحملة ورأسُ الشرك ، وفرعونُ هذه الأمة كما وصفه النبيّ الكريم .
ولم يقتل من المؤمنين غير أربعة عشر .

وروى الصحابة عن النبيّ أنه قال : أمرني ربّي أن أحبّ أربعةً
وأخبرني أنه يحبّهم . وذكر منهم بطلنا الشاب : المقداد بن الأسود ،
الذي شهد مع رسول الله غزواته كلها . وكان ، كما يقول رواية السيرة ،
إذا وقع سيفه على رجل شاطّ الرجلُ كما يشيط الثوبُ في النار ... !

أصبرُهم على الجوع والعطش

شاب من أكرم شباب العرب حسباً وأعزها نسباً . عندما بعث الله محمداً رسولاً نبياً أسلم وأخوان له وثلاث أخوات . فكان هؤلاء من أول من آمن بالنبي ودخل في دين الله . وكان السابقون إلى الإسلام يلقون من قسوة المشركين وشدة بهم بلاءاً عظيماً وعذاباً شديداً ، وقد لقي من العذاب والقسوة ما لا طاقة له به ، رغم صبره واحتماله وجلده ، فهاجر إلى الحبشة . ولكنه لم يقيم فيها طويلاً حتى عاد إلى مكة ، ثم هاجر منها إلى المدينة حينما هاجر النبي إليها .

كان عبد الله هذا شاباً عظيم الشجاعة في الحرب ، عظيم الصبر على الحنة والألم والشدائد ، وهو ، إلى ذلك ، رقيق العاطفة حميق الإيمان . اختاره النبي عليه السلام قائداً على أول سرية خرجت للقتال ، وعقد عليه أول راية رفعت للحرب : تحيّر النبي جماعة من المسلمين فجمعهم ثم قال لهم : سأجعل عليكم قائداً هو أصبرُكم على الجوع والعطش . ثم اختار عبد الله هذا فكان أول أمير للحرب في الإسلام .

فلما التقى عبد الله وسريته بالمشركين وهم في تجارتهم إلى الشام كان اليوم

الأخير من رجب . والقتال فيه محرم عند المسلمين والمشرّكين . ففكّر وقدر ، واستشار قومه ثم انتهى الرأى إلى الحرب . وكان النصر لعبد الله ، فقتل وأسروا أخذوا إلى النبي نصيبه من الغنيمة . فلما علم رسول الله ذلك غضب من إقدامهم على الحرب في شهر حرّمت الحرب فيه . وحزن عبد الله وقومه حزناً شديداً وندموا على ما فعلوا . ولسكن الله شرّفه وشرّفهم ، فنزلت فيهم آية كريمة تقرّ ما فعلوا وتحسّنه ، فكان فرحهم عظيماً بتصويب عملهم وبما نالهم من الشرف العظيم حين نزلت فيهم آية من القرآن . وقال عبد الله في ذلك شعراً يردّ به على المشرّكين .

وكذلك كان عبد الله العظيم الإخلاص في إيمانه . أراد النبي عليه السلام أن يزوّج أخته زينب إلى غلامه ومعتوقه زيد . ووجد عبد الله في ذلك معرّة كبيرة ومنقصة بين أشراف العرب فعارض هذا الزواج أوّل الأمر . فلما رأى رغبة الرسول فيه وإصراره عليه . رضى الزواج وباركه . وأمّر أخته أن تقبل فلا تعصى الرسول الله أمراً مهماً باغ .

وجاءت غزوة أحد وكان المشركون قد هزموا قبلها هزيمة منكّرة في غزوة بدر . فأقبلوا على الحرب وقلوبهم مملوءة بالحقّد على المسلمين ، ونفوسهم متعطّشة للثأر لمن قتل من ساداتهم وأشرفهم . وكانت نساؤهم تسير معهم وتحتلّط بهم في الموقعة تضرب الدفوف وتشدّ أناشيد الحرب

وتحرّضهم على أن يشدّوا على المسلمين فلا يبقوا على أحد منهم . وكان عدد المشركين خمسة أمثال عدد المسلمين .

وكان النصر في أول النهار للمسلمين . ولكن فريقاً منهم تعجّل فترك مكانه . وعاد المشركون فهاجموهم وحتى أجلوهم عن مكانهم . وأمعنوا فيهم ضرباً وقتلاً . حتى أوشكوا أن يوقعوا بهم هزيمة فادحة ، واختلط الأمر على المسلمين حتى كان أحدهم يضرب أخاه بسيفه لأنه لا يعرفه أو لا يراه . ولم يبق حول النبي عليه السلام غير جماعة قليلة . والمشركون يبذلون غاية جهدهم حتى يصلوا إليه ليقتلوه . وكان عهد الله من هذه الجماعة القليلة التي أحاطت بالنبي تدافع عنه وتحميه . وظلّ يقاتل حتى كسر سيفه . ومع ذلك بقي ثابتاً في مكانه يدافع ويقاتل إلى جوار النبي حتى قتل وكان من الشهداء .

ذلك هو عهد الله بن جحش .

يقول له النبي : فذاك أبي وأمي

كانوا أربعة من الشباب فقط هم الذين قبلوا دعوة النبي للإسلام ، وأخفوا إسلامهم خوفاً من المشركين . ثم تقدم شاب فدخل في دين الله كما دخلوا . وكانت سنة يوم ذاك سبع عشرة سنة . أمه شريفة من أكبر أسر قريش نسباً وأعزهم جاهاً . فأحزنها إسلام ولدها أبغ الحزن وأغضبها أشد الغضب ، وأقسمت أنها لن تأكل أو تشرب حتى يترك دين محمد . وصامت أياماً عن الطعام والشراب ، فلما ساء حالها قال لها ولدها إنه لن يترك دينه أبداً ، مهما تفعل .

ولمابدأ المسلمون يظهر دينهم وصلاتهم كان المشركون يعتدون عليهم بالضرب والأذى . فلما تعرضوا يوماً لذلك أمسك بواحد من المشركين فشيجه رأسه ، وكان ذلك أول دمٍ سالت في الإسلام .

ولما أرسل النبي أول جماعة للحرب بعد الهجرة كان منها هذا الشاب ، وكان أول من رمى بنبل فيها .

اشترك مع النبي عليه السلام في جميع الغزوات والحروب بعد ذلك . ولما هزم المسلمون في غزوة أحد ، وبقي النبي ليس حوله سوى عدد قليل .

ونبالُ المشركين تصيبُه من كل ناحية حتى ظنّوا وظن كثير من المسلمين أنه قتل ، لم ينهزم سعد ولم يترك مكانه ، بل ثبت إلى جوار النبي يدافع عنه ، وكان رسول الله يناوله النبل وهو يقول : — إرم أيها الشاب القوي ... إرم فذاك أبي وأمي .

إختره عمر لقيادة الجيش الذي أخرجه لفتح العراق . فكانت بينه وبين الفرس موقعة من أعظم المواقع وأهمّها شأنًا وخطراً . هي موقعة القادسية التي دامت أياماً . وهو وإن كان لم يشترك فيها بنفسه لمرضه ، إلا أن قيادته ومقدرته وابتكاره في فنون الحرب كفّلت للمسلمين النصر . ويقول المؤرخون إن جيشه كان بين تسعة آلاف وعشرة ، وجيوش أعدائه كانت مائة وعشرين ألفاً . وكان الفرس يستخرون من نبال المسلمين وسهامهم وأدوات حربهم وسيوفهم التي كان بعضها يلفّ في خرق من القماش القديم . ولكن العزيمة والصبر والإصرار على النصر والقيادة الشجاعة الحكيمة جعلت هذا الجيش ونباله وسيوفه تهزم جيش الفرس . وتقتل قائده الشجاع رستم :

ثم سار بعد ذلك على المدائن ، عاصمة ملك الفرس . وهزم ملكها الشاب حتى أرغمه على الفرار ، وغنم في هذه الموقعة مغنم لا تحصى وأصبح بذلك سيداً على العراق كله .

— ٣١٧ —

ولم تكن لسعد بن أبي وقاص قدرة فائقة في الحرب وحدها . فقد
تولى بعد ذلك إمارة الكوفة ، فصكح أمرها وازدهر حالها . وبنى ' مدينة
الكوفة فأقام فيها مساكن عظيمة ، وشيّد قصرأ رائعاً فيه ترف وذوق وبراعة
في الهندسة والعمارة لا تقل عن براعته في الحرب .

فاتح قبل سن العشرين

بدأت الفتوحات الإسلامية في الهند ضعيفة متعثرة متباعدة . ينتصر قائد على جيش ويفتح مدينة ، يأخذ أسرى . ولكن غيره يُهزم ويُقتل . حتى ولى أمر هذه الجيوش قائدٌ بطل . كان في سنٍّ يراه بعض الشباب سنَّ اللهو والعبث والطيش .

شاب من أسرة أخرجت أبطالاً . وكان أبوه بطلاً وحاكماً وزعيماً . ورآه ابنُ عمه الحجاج قاهر العراق وحاكماً يحارب إلى جانبه ، فبهرتُه شجاعته ومقدرته ، رغم صغر سنه . فولَّاه قيادة الجيوش الغارية في الهند . ومنذ قادها وهي تنتقل من نصر إلى نصر . حتى فتح بهذه الجيوش ، جميع بلاد السند .

ولم يكن انتصار محمد هذا سهلاً ولا يسيراً ، فقد استعمل فيه كل حيلة وبراعة في الحرب . كانت معه آلة تشبه المدفع الذى يستعمل الآن في الحروب الحديثة . وكان اسم هذا المدفع « العروسة » . وكانت هذه الآلة كبيرة ضخمة . يقوم بالعمل فيها خمسمائة جندي . وتقذف حجارة ضخمة تهدم الأسوار والبيوت . حاصر محمد مدينة كبيرة من مدن السند . ثم

وجه قذائف « العروسة » إلى معبد كبير كان يقدّسه أهل المدينة . فخرج أهلها لحرّبه . وقامت بينهم موقعة استمرت ثلاثة أيام انتصر فيها القائد الشاب . وهرب حاكم المدينة وقائد جيشها ، فدخلها فاتحاً .

وتسامع أهل السند بما فعل محمد . وعلموا أنه ترك بعض جيشه في هذه المدينة وأنه في طريقه إلى بقية البلاد . فخاف كثير من أهلها ومن حكامها وقوادها بطشه وسيفه . فسلمت له ولم تحارب . وصالحه قوادها . وحكمها على الشروط التي يرضاها . ووقفت مدينة كبيرة في وجه جيوشه ، فلقيت منها الخراب والدمار ولقي أهلها الفناء والموت والأسر .

ووجد ابن القاسم في طريقه نهراً يعوق سير جيوشه . فأقام عليه جسراً عبر عليه بجيشه حتى التقى بملك السند ، ذاهر ، ومعه جيش عظيم . وكان الملك يركب فيلا ضخماً وحوله قواده على أفيالهم . واستعرت الحرب بين الجيشين استعاراً شديداً . فلما بلغت المعركة غاية عنفها ، نزل ملك السند من فوق الفيل ، وظل يحارب اليوم كله حتى قتل في المساء . ولم تغن القيلة عن أصحابها شيئاً ، فقد هربت بعد أن ألفت أحمالها وراكبها . وداعت بعضهم بأقدامها . وسار محمد إلى عاصمة ذاهر ، وكانت له امرأة فيها لم تشأ أن تسلم للقائد الشاب ، فخاربه حتى قهرها . فلما علمت أنها مغلوبة

لا محالة . وخشيت أن تقع أسيرةً في يده . أحرقت نفسها وجواريتها .
وجميع ما تملك .

وبقيت بعد ذلك مدينة كبيرة لم تفتح ، ولم تصالح . فلم يهدأ للقائد
الشاب ضمير حتى فتحها بعد معارك طاحنة وفرّ ملسكها أو قتل . وقد دافع
كثير من مدن السند جيوشه دفاعاً مجيداً :

في هذه الفتوحات التي قاد جيوشها محمد ، قتل في بعض المدن ، من
أهل السند ، ستة آلاف وحوصرت بعض المدن شهوراً حتى كادت جيوش
المسلمين أن تتركها ، لولا صبر قائدهم وحيلته . ونقص طعام الجيش حتى أكل
جنوده لحوم الحمير . ولكنه ، بعد النصر ، حكم السند خمس سنين . وأرسل إلى
الحجاج في دمشق — في مدة الفتح وحدها — عشرات الألوف من دنانير الذهب .
قد صدق الشعراء حين مدحوا محمداً بن القاسم فقالوا إن مجده
وسؤدده كانا قريبين جداً من ولده . فهل يعرف الشباب كم كانت
سنه حين حمل سيفه وخاض هذه الحروب الهائلة ، وفتح هذه البلاد التي
كان فتحها حدثاً من أعظم الأحداث في تاريخ الإسلام بل في تاريخ العالم ؟

كانت سنه يوم ذاك سبع عشرة سنة . . !

وصدق ما دحوه ، بل واصفوه :

قاد الجيوش سبع عشرة حجةً يا قرب ذلك مولداً من سؤد

الفاتح الإفريقي

كان الفاتحون المسلمون يتقدمون صوب الغرب من أفريقيا يخضعون
 الثائرين ، ويفتحون البلاد ، ويحصنون المدن التي تدخل في سيادتهم .
 وقائدهم ، موسى بن نصير ، يطارد الثائرين في المغرب الأقصى . وكانت
 مقاومتهم تشدد وتعنف كلما قاربت النهاية . وتحصن الثائرون في مدينة .
 « طنجة » وقاتلهم المسلمون عليها قتالا شديدا حتى فتحوها ، وانتهى بذلك .
 أمر الفتنة والثائرين .

وظهر في هذه المواقع كلها شاب جسور قوى يجارب ولا يهاب ،
 ويقاتل فيبطش ، ويقتحم فيقتل ، فكان له في هذا النصر نصيب كبير
 حاز به إعجاب القائد موسى وكسب حبه وتقديره . فاختره موسى حاكما
 على طنجة . تقديراً لشجاعته وقوته ومقدرته وحزمه .

وسارت الأحداث بعد ذلك سيرا جعل موسى يفسكر في غزو الساحل
 الجنوبي من أوربا . بعد أن انتهى من فتح شمال إفريقيا . فلما أذن له الخليفة
 في دمشق في أن يقدم على ذلك ، اختار بعض السرايا من الجند في حملات .

صغيرة نقلتها السفن ونزلت أرض أوربا فشهدت ما فيها من خصب وخير
بوجمال وثروة . ثم عادت بما تحمل من الغنائم .

أنتم موسى بعد ذلك تجهيز جيشه . واختار قائدا له ذلك المقاتل
البحرور الذى اختاره من قبل حاكما على طنجة . وحملت السفن القائد
وجيشه ، حتى نزلوا فى الجانب المقابل . على جبل لا يزال يعرف إلى
اليوم باسمه . وكان أول مكان نزله هو ماعرف بعد ذلك بالجزيرة الخضراء .
نزلها قبل الفجر ، فصلى الصبح وعقد الرايات لقواده ، وأقيم بعد ذلك فى هذا
المكان مسجد سمي : « مسجد الرايات » . وقال الرواة إن هذا القائد بعد أن أنتم
نقل جيوشه أحرق السفن التى حملتها . حتى لا يترك أحد فى عودة
ولا فى فرار . وقالوا إنه خطبهم خطبة معروفة مشهورة قال فيها : أيها الناس
أين المفر : البحرورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصديق والصبر
السمحوا لأنفسكم بالموت وقد سمحت به لنفسى معكم . واعلموا أنكم
لو صبرتم على المشقة قليلا ، استمتمم بالنصر طويلا ، وسأقدم بنفسى إلى
ملك القوط فأقتله ، فإن قتلنى قبل ذلك ، فلكم من قتلى عبدة وقدوة
تخذوا بشارى منه .

وسواء أصبح ما ذكره فى أمر السفن والخطبة أم لم يصح . فقد بدأ
الفاتح الإفريقى يخرق الجزيرة ، ويفتك بجند الأعداء ، ويستولى على

البلاد والسهول . وبادر حكام المدن في طلب النجدة من رودريك ملك القوط ، فجمع هذا جيشاً قدره الرواة بمائة ألفٍ سار هو على رأسهم . وكان جيش العرب سبعة آلاف من العرب والبربر ، ثم أمده موسى بخمسة آلاف . وكان يساعده بعض الخارجين على رودريك .

إننا عشر ألفاً يقاتلون مائة ألف ، يقاتلونهم على أرضٍ لا يعرفون مسالكها ولا بلادها ولا زروعها ولا ماءها ولا طبائع أهلها ، وهؤلاء يقاتلون في بلاد يعرفون عنها وعن طبيعة أرضها كل شيء . وكان اللقاء الحاراً في سهل فسيح ، سهل شريش ، وكان في رمضان من أيام صيف حارة . وابتدأ القتال ، ودام في عنف وقوة أربعة أيام ، أبدى فيها الفاتح الإفريقي من ضروب البسالة والقوة والصبر ما أبدا ، وأظهر فيها قائدٌهم كل ما يملأ قلبه من الشجاعة ، وعقله من الخيلة والبراعة والمقدرة ، وجاء عيد الفطر والحرب في شدة وسعير ، ولكن لم ينجح اليوم السابع من بدء الموقعة حتى كان جيش رودريك فلولاً تسرع إلى الهرب ، وتسير بلا هدى ، وسيوف الفاتح الإفريقي في أفقيتهم .

ولم يقتل الفاتح الجسور غريمه رودريك ، كما كان يرجو ، ولكن رودريك قتل بالفعل في هذه المعارك : مات في النهر القريب من متحراً ،

— ٢٢٤ —

أو مقتولا، أو مهزوماً انطلقت به فرسه فلم يستطع أن يردّها حتى غرقت به ،
 لا أحد يدري . ولسكنه غرق في النهر على أيّ حال . وسار القائد بعد ذلك
 إلى الشمال يفتح البلاد ويستولى على المدن والقرى والسهول حتى بلغ طليطلة .
 عاصمة مملكة رودريك ، فاستولى عليها . وكان بذلك أول عربيّ فتح
 أوّل أرضٍ أوروبية .

القائحُ الافريقيّ هو طارق بن زياد ، والبلاد هي الأندلس .

الموت خيرٌ من الذل

فرّق تسد . قاعدة ليست جديدة في علاقة الغرب بالشرق . ومذهب قديم سلكه الغرب معنا منذ قرون ، واستطاع به أن ينال منا نيلاً شديداً ، وأن يستولى أو يسيطر على أقطار كثيرة عزيزة من وطننا العربى . بل أن يُفقدنا بعض هذا الوطن . وكان أفدح ما أصابنا من هذه السياسة المفرقة الهدامة ، وأعظمه شراً ونكراً ، مأساة الوطن العربى فى الأندلس :

كان أبو عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر أميراً على غرناطة ، بعد أن أثمرت سياسة « فرّق تسد » ثمرتها من قبل فى أمراء المسلمين ، فخارب بعضهم بعضاً ، واعتدى بعضهم على بعض ، وانتصر بعضهم بأعداء العرب من ملوك فرنسا وأمراءها . وكان لأبى عبد الله عم يعيش فى غرناطة أيضاً . وأراد فردناند الخامس ملك فرنسا أن يقضى على هذه الإمارة الصغيرة التى بقيت للعرب فى أسبانيا ، فأوقع بين عبد الله وبين عمه محمد بن سعيد . وقامت الحرب بين أهل الأسرة الواحدة والوطن الواحد والمدينة الواحدة . فكانت « غرناطة » قسمين : واحد يحكمه عبد الله ، وواحد يحكمه عمه ابن سعيد ، والحرب قائمة بينهما . وأعان فردناند عبد الله حتى انتصر على عمه . وكان فردناند ، فى واقع الأمر ، هو الذى انتصر . فقد انفرد بعد ذلك بعبد الله ، بعد أن أضعفته الحرب وأنهكت جنوده وأتقصت

موارده. ووجه فردناند جيوشه التي كانت تحارب مع عبدالله. وجهها لقتاله والاستيلاء على غرناطة. واختلط الأمر على الأمير، ودار ماذا يفعل أمام خصمه القوى العنيد الماكر.

وكان موسى بن أبي الغسان شاباً من أكرم شباب غرناطة أصلاً وأشجعهم قلباً وأعظمهم فروسية في الحرب. فبادر إلى جمع جيش من الفدائيين الذين يسعون للموت ويقتحمونه ويسعدون به. وكانت جيوش الفرنسيين على أبواب غرناطة تتميهاً لاقتحامها. فكان ابن أبي الغسان يخرج إليهم ليلاً أو نهاراً فيقتحم عليهم خيامهم وحصونهم ويفتك بهم، ثم يرجع إلى المدينة بالأسلاب والغنائم والأسرى. وذاع اسم ابن أبي الغسان في المدينة وانتعشت روحها بآباء غزواته وفتكته بالفرنسيين، وكانت فتيات غرناطة ونساؤها يتطلعن إليه من وراء الحجب وهو راكب فرسه، يلبس درعا من الحديد، وفي يده سيف مسلول، ومن خلفه جنده من الشباب، فيزددن له حبساً وبه إعجاباً وإشفاقاً. وظن فردناند أن في المدينة جيشاً عظيماً فلم يقتحمها. ولكنه ضرب عليها حصاراً شديداً، ورأى موسى أن الحصار أضر بالمدينة إضراراً شديداً، حتى جاع فيها الأطفال والنساء والمرضى وأوشك أن يضمف من قوة شبابها للحارب، فوضع نظاماً صارماً لتوزيع الطعام، وخصص طائفة من محاربيه للهجوم على مؤن الأعداء والاستيلاء

عليها . واستطاع موسى بذلك أن يجعل الحصار لا جدوى منه للفرنسيين .
وأن يعجّل بالمعركة الفاصلة ، على أبواب غرناطة .

وكانت معركة رهيبة قاسية بين جيشين غير متعادلين : الفرنسيون
كالطوفان الجارف ، عددهم وفير وسلاحهم كثير . والمجاهدون قلة ضعاف ،
ولكن أشجاعة موسى ومن معه كانت لا تقهر ولا تغلب ولا تلين . فقتلوا من
عدوهم مقتلة عظيمة . ولما رأى موسى كثرتهم وقلة رجاله ، أسرع راجعا إلى
المدينة وغلق أبوابها من خلفه ولم يمكن الأعداء من دخولها .

وجمع الأمير أبو عبد الله رجاله ومستشاريه ليتدبّر معهم الأمر . وأخذ
حاکم المدينة يحدثه عن أمرها ومن قتل من رجالها وأنها على وشك أن
ينفد منها الطعام والازاد ، وأن يحلّ بأهلها الجوع . ورأى عبد الله ورجاله
ومستشاروه أن يستسلموا ويسلموا . ولكن موسى بن أبي الغسان أبى وقال :
— خير لنا أن نموت ، ونهدم المدينة ، ويقتل أهلها ، ولكنا لا نسلّم .

وجاء إلى أبي عبد الله رسول من عند فردناند بشروط للصالح ، فقابلها
هو ومستشاروه . وقام الأمير فحمل مفاتيح المدينة ليقدمها إلى فردناند ، بينما
خرج ابن أبي الغسان يلبس درعه ، ويركب فرسه ، ويرفع سيفه ، ومن حوله
الآبطال من الشباب . فاقتحموا على جيش فردناند مواقعه . وقد تعاهد
الجميع على الموت . وظلوا يحاربون ويتساقطون صرعى واحداً بعد واحد .

ورأى الفرنسيون فارساً يلقي بنفسه على الجموع فيقتل منهم ، ثم يسرع إلى
غيرهم فيبيطش بهم سيفه ، فتكاثروا عليه بسيوفهم ورماحهم من كل ناحية .
ولسكن درعه من الحديد ، وقوة بأسه ، وخفة حركته . جعلت سيوفهم
ورماحهم لا تصيب منه مقتلاً . وبعد أن شفى ابن أبي الغسان غليل قلبه من
أعداء وطنه ، وروى سيفه بالغزير من دمائهم . وأيقن أنه لم يعد مفر من
الموت . أسرع إلى النهر فألقى نفسه إلى موجه . وسيفه في يده .

وطوى النهر جثة هذا البطل الشهيد ، كما طوى الدهر صفحة الجند
العربي في الأندلس .

يزيد بن مَزيد

في بيت من أمجد بيوت الشجاعة والفخر والفروسية والحرب . ومن
أسرة لها في تاريخ الأمة العربية أمجاد وعِراقة وذكر . أسرته : بنى شَيْبَان ،
وأبوه مَعْن بن زائدة . من هذا الأب وفي هذه الأسرة وهذا المجد ولِد
وتربَّى حتى صار رجلاً محارباً وأميراً على سِجِسْتَان وعلى أرمينية . وقائداً
يُنْدُبُه المنصور ، والهدى ، والرشيد لأن يذود بسيفه عن دولة الخلافة ومجدها
فيذود ، ويخلص الدولة من شرٍّ عظيم وخصوم أنقصوا الدولة من أطرافها
وأوشكوا أن يفضوا عقدها وأن يذلوا عزَّها .

خرج على المهديّ يوسفُ بن إبراهيم ، وحارب جند الخلافة ، حتى
استفحل شرّه وزاد خطره ، فندب له الخليفة يزيدا . وتلاحم الجيشان
واقْتَتَلَ الغريمان حتى تغلّب يزيد وأسرَّ يوسف بن إبراهيم فبعث
به ذليلاً إلى المهدي .

واشترك مع الرشيد في غزواته على بلاد الروم حتى وقف للمبارزة مع
أميرهم وقائدهم « نفيطاً » فقتله . وهزمت الروم .

وكانت هناك جفوة بينه وبين المنصور . حتى عزّله عن الولاية واستصنى أمواله وأمر بسجنه ، واستطاع يزيد أن يحتفى ويترقّب . فلما ثارت الخوارج على الخلافة لم يجد المنصور لحربهم سواه . وبرز لهم يزيد فحاربهم حتى قهرهم وردّ للدولة أمنها واعتبارها .

وثارت الفتنة الكبرى على الرشيد بقيادة الوليد بن طريف ، ابن عم يزيد — واستطاع هذا الخارجى أن يستولى على أقاليم كثيرة من بلاد الخلافة ، وأن يهزم جيوشها ويقتل قائدها . فندب له الرشيد يزيدا . وطلب أن يلقاه ، فلما دخل يزيد عليه قدّم له الرشيد سيفاً ثم قال له : هذا السيف الذى قلّدتك لك ، هو « ذوالفقار » سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . أعطاه لعلّى . ثم انتهى إلى الخليفة المهدي ثم إلى أخى الهادي ثم صار إلى . وهأنذا أقّله فخر بنى شيعة ليهزم به عدونا ويؤيد به دولتنا . وأجابه يزيد : « عدوّ أمير المؤمنين ، بإذن الله ، مقهور . وجيشه بقوة الله منصور » .

وسار يزيد لحرب ابن عمه الوليد ، وطالت بينهما واحتدمت المواقع والخطوب ولسكن أحدهما لم ينتصر ، حتى استنبطاً الخليفة النصر وكتب إلى قائده كتاباً فيه شيء من العتاب والملامة . وصتم يزيد على أن ينال إحدى الحسينين : النصر ، أو الموت . والتقى الجيشان يوماً فبرز يزيد ينادى خصمه : يا وليدُ مالك تمسّرت بالرجال . . أخرج إلى فأما قتلتنى أو قتلتك .

وخرج له ابن عمه الوليد ، وتبارز البطّلان ، والجيشان واقفان ينظران .
ودامت بينهما المبارزة ، كل منهما يطارد صاحبه ويحاوره ويثب عليه
يريد أن ينال منه مقتلاً . حتى استطاع يزيد أن يضرب رجل الوليد فسقط
على الأرض . وتكاثر الجند عليه فقتلوه ، وأرسل يزيد البشائر بالنصر
إلى الرشيد ، ومعها رأس الوليد .

وتناقل الناس أنباء هذه البطولة وهذا النصر . وقال فيه الشعراء ،
حتى وضع مروان بن أبي حفصة يزيداً في المنزلة الثانية بعد الخليفة ، وسمّاه
أسد العرب :

يا أكرم الناس من عجمٍ ومن عرب بعد الخليفة ، يا ضمرّامة العرب
إن السّنان وحدّ السيف لو نطقا لحدّثا عنك في الهيجاء بالعجب

* * *

وشمل الفخار بيت يزيد وأسرته . وتحدث أهله عن قصة وقعت في
صباه بين أمه وأبيه ، طالما تناقلوها وتذاكروها وتحدثوا بها : فقد كانت
أمه تحس أن أباه يعلّق به ويحبّه أكثر من إخوته ، وتحدثت إليه في
ذلك مرّة بعد مرّة ، وأراد الأب أن يظهر لأمه أن هذا الصبي حريّ أن يحبّه
ويقدّمه ويتعلّق به . فطلب إلى خدّمه في ساعة من ليال أن يحضروا إليه أولاده

جميعاً ، فقام الأولاد من نومهم وسارعوا إلى لقاء أبيهم في ثيابهم من
الحرير . ثم جاء بعدهم يزيد يحمل سلاحه : السيف والرمح في يده ، وفي
وسطه منطقتة ، ودرعُه يحيط بصدرة . وسأله أبوه : ما هذه الهيئة يا يزيد ؟
فأجابه . يطلبني أبي في هذه الساعة من الليل فخذتني نفسي : لا بد أن أمراً
كبيراً هو الذي جعله يفعل ، فإن كان خطباً أو أمراً أسرعتم لما تأمرني ،
وإن كان غير ذلك فنزع سلاحي يسير .

فعدرت أمه أباه في حبه وتقديمه . وعلمت أن سيكون من هذا الفتى
بطلٌ يتحدث عنه الناس .

وقد كان . . .

الاعمال

لم يمضِ شهران على دخول نابليون القاهرة حتى بدأ المصريون يُفقهون من أثر الهزيمة التي أوقعهم فيها مراد والمماليكُ بغرورهم وطيشهم وجهلهم . وبدأ أهل القاهرة يجمعون أمرهم استعداداً للثورة والانقضاض على الغزاة الذين دنسوا أرض وطنهم .

أخذوا يجمعون ما أخفوا من السلاح والذخيرة ، ويفظمون شئون الحرب ، وألقوا من بينهم هيئة لقيادة الثورة كان مقرها الأزهر ، ورئيسها عالم من أكبر علماء : هو الشيخ السادات .

وشهد الناس يوماً شاباً قوياً جهوري الصوت يسير في أحياء المدينة : في شوارع المشهد الحسيني ، والغورية ، والمتولي . ثم في شوارع الحسينية ، وباب النصر ، وباب الفتوح . يسير في شوارع هذه الأحياء وأزقتها وحاراتها ودروبها رافعاً رأسه يدعو الناس بصوته القوي للثورة فيقول : الحرب الحرب ... الجهاد الجهاد ... الحرب فرضة واجبة ، الجهاد فرضة واجبة . الحرب واجبة كالصلاة . الجهاد كصوم رمضان . حتى على الصلاة حتى على الجهاد .

كان الناس يرون هذا الشاب ويسمعون صوته كل يوم . ثم ينتهى
معاذاه إلى الجامع الأزهر . وكان هذا الصوت القويّ بملأ نفوسهم بالعزم
والقوة والتصميم . ويضاعف حماسهم وإصرارهم على أن يلقنوا هؤلاء
الغزاة درساً لم يستطع المماليك أن يلقنوهم إياه .

وجاء اليوم الحادى والعشرون من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ وقد
أصبحت القاهرة كلها متحفزة للثورة . وبدأ الرجال والشيوخ والصبيان
والنساء أيضاً يخرجون من مخابثهم ومكائهم ويفتكون بالفرنسيين فى كل
مكان . فإذا تقدّم هؤلاء لحرّ بهم أوقفتهم المقاريس التى أقامها أهل القاهرة .
أمام بيوتهم وعلى رؤوس الشوارع والحارات والمسالك . واشتعلت الثورة
وزاد لهيبها يوماً بعد يوم ، وقدم الفلاحون من الضواحي القريبة : من الجيزة
والمطرية ، والزيتون ، والمرج ، وسرياقوس ، وقلوب ، للاشتراك فيها .

واستطاع الثائرون أن يغالوا من الفرنسيين منالاً شديداً ، وأن يقتحموا
مقرّ قيادة نابليون فى الأزبكية . وقتلوا الجنرال : « ديبوى » حاكم القاهرة .
والجنرال : « سلكوسكى » ، وكان من أبرع قواد نابليون وأشجعهم .
وأحبهم إلى قلبه . كما قتلوا ، فى يومين ، مائتين من ضباطه وجنوده .

ولم تقف الثورة — إلى حين — إلا بعد أن نصب نابليون مدافعه .

حول القاهرة تدكها بمقابلها من غير تمييز. ليلاً ونهاراً. وبخاصة الجامع الأزهر. وبعد أن اقتحمه جنده وعسكرت فيه خيولُه.

وكان المجاهدون في أيام الثورة هذه يشهدون ويسمعون ذلك الذى يدعوهم للحرب كما يدعوهم للصلاة. فنشئت عزائمهم بصوته ودعوته. ثم انقطع سيرُه وصوته فلم يعودوا يرونه أو يسمعونه.

وعرف أهل القاهرة أن الفرنسيين قبضوا — ضمن الكثيرين الذين قبضوا عليهم — على ستة من علماء الأزهر، كان منهم هذا الداعية الجاهد.

وذهب كبار الشيوخ يستشفعون هؤلاء العلماء ويطلبون من الفرنسيين إطلاق سراحهم، فقالوا: إننا حبسناهم في بيت الشيخ الهكرى تكريماً لهم، وسنطلق سراحهم بعد قليل. ومكر الفرنسيون بأهل القاهرة وبالشيوخ الشُّعاء وخادعهم في هؤلاء الستة. ثم علم الناس أن الفرنسيين قتلهم... أطلقوا عليهم النار. وقطعوا بعد ذلك رؤوسهم، ثم ألغوه في النيل...!

وحزن أهل القاهرة على شهداءهم حزناً شديداً. وكانوا أشدَّ حزنًا على هذا الشيخ الشاب الذى كان يدعوهم ويحرّضهم. الشيخ سليمان الجوسقى.

— ٢٣٦ —

كان شاباً قوياً ذا مهابة وصرامة وعناد ، يشتغل بالعلم في الأزهر ،
ويشتغل بالتجارة . جمع ثروة كبيرة من كفاحه وكدحه : تومس السفن
من بلاد الصعيد باسمه ، قحاً . فيتلقاها رجاله في القاهرة ، فتطحن دقيقاً
في مطاحنه ، ثم يبيع الدقيق في الأزهر .

وكان ، فوق ذلك ، أعمى !..

فتى من الصعيد

نزلت جيوش نابليون إلى الصعيد، بعد دخوله القاهرة واستقراره فيها.. وكان الجنرال ديزيه، قائد الجيش الذى نزل إلى الصعيد، يبعث برسائله كثيرة متلاحقة إلى نابليون وخلفائه وكلها تفيض بالشكوى من عنف المقاومة التى تلقاها جنوده فى كل بلدة وقرية من بلاد الصعيد وقراه.

وكان مراد بك كبير المماليك، بعد هزيمته فى معركة امبابية، إنحدر إلى الصعيد ليحارب الفرنسيين. ولكنه بعد ذلك صالحهم ورضى أن يكون حاكما على الصعيد من قبلهم. فكان حرباً على المصريين وبصيراً مخلصاً - بل خادماً - للفرنسيين. ولكن ذلك كله لم يضعف من مقاومة أهل الصعيد وبساتهم واستماتهم فى الدفاع عن شرف الوطن. وكلما أمعن ديزيه وجنوده فى التقدم إلى الجنوب، كلما زاد ما يلقى من بلاء وحرب وعنفي فى المقاومة.

وكانت جماعة من الجنود الفرنسيين تسير قد أنهكها الجهد والتعب، فجلس أفرادها إلى ظل شجرة يستريحون. وتقدم صبي مصري يتسلسل فى حذر حتى جاور واحداً من الجنود فهاجمه واستطاع أن يفتزع منه بندقيته.

موقبل أن يطلقها على الجندى ، أسرع جندى آخر فضربه بالسيف على
ذراعه فجرحه وأسقط البندقية من يده .

وأخذ الجند هذا الصبي إلى القائد العام الجنرال ديزيه .
وكان نابليون وهو في طريقه إلى الإسكندرية نزل جزيرة مالطة فاحتلها ،
ووجد فيها كثيرا من الأسرى يعرفون اللغة العربية ، فأطلق سراحهم
واستخدم كثيرين منهم مترجمين . وأخذ ديزيه يتحدث إلى الصبي المصري
الشجاع - عن طريق مترجم - فسأله عن شركائه في العدوان على الفرنسيين ،
وعن الذين يحرضونه على المقاومة أو يشتركون فيها من أهل بلده ، وعمن
دفعه لأن يفعل ما فعل . فأجابه الصبي المصري بقوله : - ليس لى شركاء
ولا محرّضون . وقد أمرنى ربى بأن أقتل من أستطيع قتله من الفرنسيين .
وكل مصرى مجاهد يشترك في هذه الحرب المقدسة بكل ما يستطيع .

وأعاد ديزيه هذه الأسئلة على الصبي مرة بعد مرة ، فلم يسمع منه
غير هذا الجواب ، فسأله : - ومن كنت تريد أن تقتل من الجنود
البندقية التى خطفتها .؟ فقال : - كل من أستطيع قتله . ولو استطعت
قتلك أنت لفعلت . فقال له ديزيه . - إنك طفل صغير لا تعرف العقوبة
التى تحل عليك بما فعلت . ولكنى أعفو عنك وأعطيك نقوداً إذا أخبرتنى
عمن حرّضك . فقال له الصبي . - لن أسمع منى جواباً غير ما سمعت .
إنك تهددنى بالعقوبة ، فأليك رأسى فأمر بقطعه .

عند ذلك خرج ديزيه عن طوره ، وازداد غضباً وطيشاً وحماسة .
وأمر الجنود بأن يأخذوا الصبي فيجلدوه ثلاثين جلدة . وأخذ الجنود
فكشفوا عن ظهره ، عارياً ، وضربوه ثلاثين جلدة . فلم يصرخ ، ولم يبك ،
ولم يرتفع له صوت ، ولم تتحرك من جسده جارحة . حتى عجب الجنود
من أمره كل العجب . ثم أمر ديزيه بعد ذلك بإطلاق صراحه .

وعندما غادر الصبي معسكر القائد العام ، أراد الفرنسيون أن يعذبوا
به ويخيقوه . فلما ابتعد عنهم خطوات ، أطلق جنديّ رصاص بندقيته
فوق رأسه . ولكن الصبي لم يخف ، ولم يفرغ ، ولم يدر رأسه إلى وراء .
ولم يسرع في سيره . بل مشى في طريقه كما كان ، شامخ الرأس .

وخرج جيش نابليون من مصر - أو من بقي من أفراد جيشه -
وسجلت المصادر الفرنسية شجاعة هذا الصبي . كما ذكرت أن ديزيه كان
يذكر على الدوام هذا الصبي المصري الشجاع ويقول إنه لو أحسنت تربيته
الساكن منه بطل عظيم .

لا نعرف اسم هذا الصبي . ولكننا نعرف أنه كان من بلدة الفقاعي ،
مركز ببا - ولعله ابن فلاح فقير فيها - وأنه كان يوم ذاك في نحو الرابعة
عشر من عمره . ونحن وإن كنا لا نعرف اسمه ولا أسرته ، فنحن نعرف
كيف نحبيّه ونعجده شجاعته وذكره .

كتب للمؤلف :

١ - دراسات في تاريخ الجبوتي ، مصر في القرن الثامن عشر
ثلاثة أجزاء

نال الجائزة الأولى من مجمع اللغة العربية
٩٩٥٦
صدرت الطبعة الثانية

٢ - الدين والضمير :

١٩٥٨

٣ - تقويم الفكر الديني وصلاته بالقومية العربية :

١٩٦٠

مطبعہ دارالعلوم
بہار العلوم و ادب